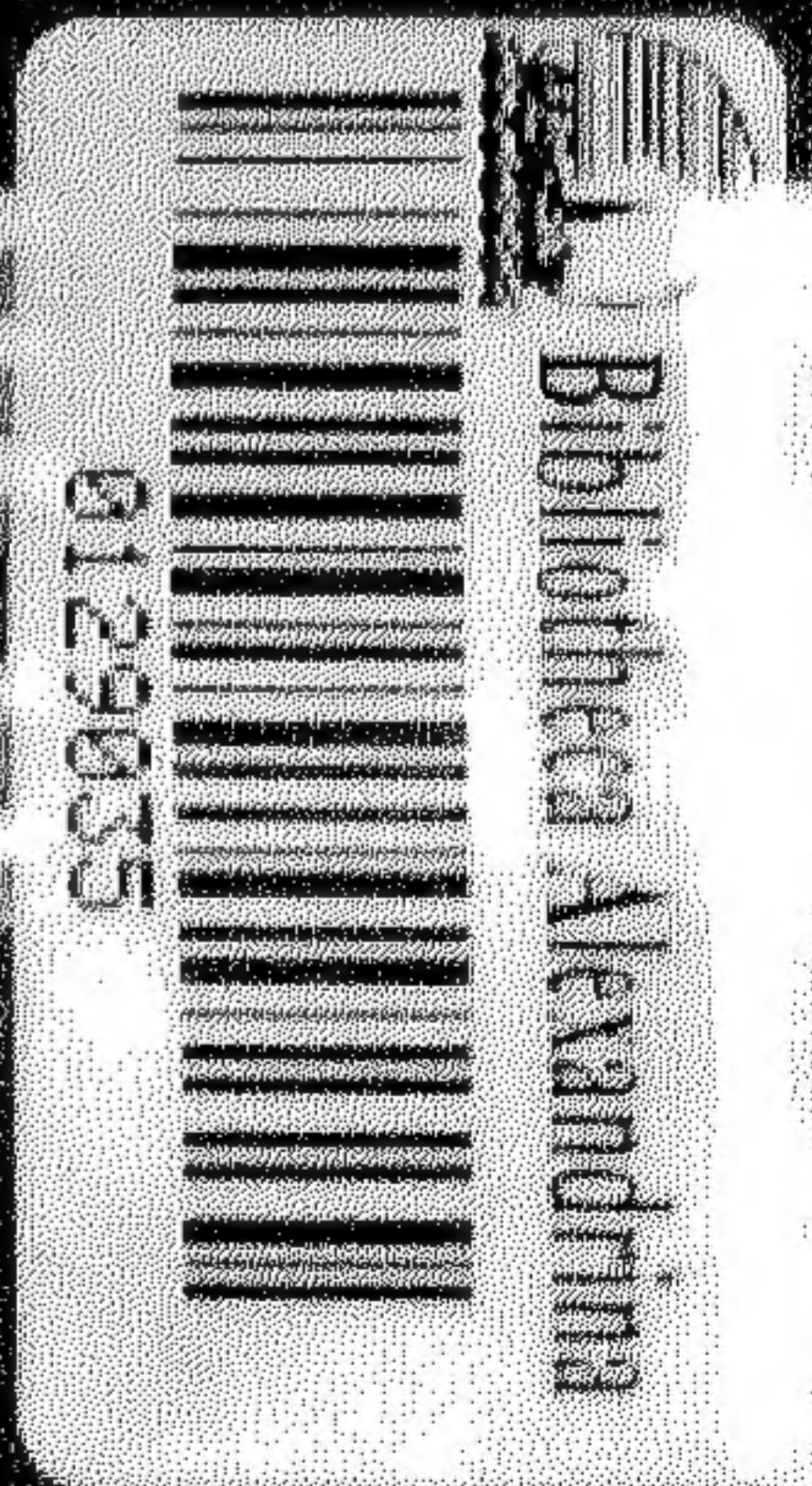


سمير فراج



شعرى شعرى

مكتبة مديونى الصغير



928

شعراء
قتلهم
شعرهم

الناشر : مكتبة مدبولي الصغير

٤٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز

تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ - ٣٤٤٢٢٥٠

ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥

رقم الإيداع : ١٣٠٦٠ / ٩٦

الترقيم الدولي : 7-014-236-977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٩٩٧ م - ١٤١٧ هـ

كمبيوتر : كايرو ميديا

شعراء قتلهم شعركم

محمّد مصطفى فراج

إهداء

إلى قُرَّتِي عَيْنِي

" لبنى " و " نزار "

هذا هو الشعر " فلا تقربا هذه الشجرة "

أبوكما

سمير فراج

شعراء قتلهم شعرهم

هَدْبَةُ بْنُ خَشْرَمٍ

قتل شاعراً... وقتله بيت شعر

هو هذبة بن خشرم بن كرز من بنى عامر بن ثعلبة من بادية الحجاز، وكان شاعراً متقدماً
فصيحاً وراوية للحطيثة. كان هذبة مع رهط من قومه فى طريقهم من الشام للحجاز
قاصدين الحج وكان معهم زيادة بن زيد وهو من بنى رقاش بن قره وكانت مع هذبة أخته
فاطمة فتغزل بها زيادة قائلاً:

عوجى علينا واربعى يافاطما	مادون أن يرى البعير قائما
الأتريسن الدمع منى ساجما	حذار دار منك لن ثلاثما
فمرجت مطرداً عراهما	فعمأ يئذ القطف الرواسما

وأطال زيادة فى قصيدته فبغضب هذبة ورد عليه بأن تغزل فى أخته وكانت تسمى أم
خازم، فقال:

لقد أرانى والغلالم الخازما	نزجى المطى ضمراً سواهما
متى تظن القلص الرواسما	والجلة الناجية المياهما
يلفن أم خازم وخازما	إذا هبطن مستخيراً قائماً

فسبه زيادة، ورد عليه هذبة وطال بينهما ذلك حتى صاح بهم القوم: اركبا لاحملكما
الله، فإننا قوم حجاج، وخشوا أن يقع بينهما شر فظلوا يعظونهما حتى سكث كل منهما على
ما فى نفسه. لكن هذبة كان أشد حنقا على زيادة ورأى أنه غلبه وضامه فقد تغزل فى أخته
فاطمة وهى حاضرة سامعة، بينما تغزل هذبة فى أم خازم أخت زيادة وهى غائبة لاتسمع
غزله فيها فمضيا ولم يكلم أحدهما الآخر حتى قضيا حجهما وعادا إلى مضارب قوميهما.
ومن يومها صارت عداوة بين هذبة وزيادة، ظهرت بوادرها فى المعارضات الشعرية، فكان

كل منهما يحاول العلو علي صاحبة في الشعر ويرد الثاني محاولاً أن يبرز قول الأول، ومن ذلك ما قاله زيادة:

أراك خليلاً قد عزمت التجنباً	وقطعت حاجات الفؤاد فأصبحاً
فهلا صرمت والحبال متينة	أميمة إن واشى وشى وتكذباً
إذا خفت شك الأمر فارم بعزيمة	غيابته يركب بك الحزم مركباً
يلام رجال قبل تجريب غيبتهم	وكيف يلام المرء حتى يجرباً

فرد عليه هذبة بقوله:

تذكر شجواً من أميمة منصبا	تليداً ومنتاباً من الشوق مجلبا
تذكر حبا كان في ميمة الصبا	ووجداً بها بعد المشيب معتبا
إذا كان ينساها الفؤاد ذكرتها	فيالك من عني الفؤاد وعدبا
غدا في هواها مستكينا كأنه	خليع قداح لم يجد منتشبا

لكن هذبة لم يشفه ما قال من شعر ولم يشعر بزهو الانتصار على خصمه، فلم يزل يتحين الفرصة للانتقام من زيادة حتى وجدها فقتله. وكان سعيد بن العاص والياً على المدينة، فهرب هذبة مخافة القصاص، فجاء بن العاص بأهله وحبسهم، ولما علم هذبة بذلك، رجع وأمكن من نفسه ليخلص أهله، فأرسله بن العاص إلى معاوية ليرى فيه أمره، فلما صاروا بين يدي معاوية، قال عبد الرحمن أخو زيادة: يا أمير المؤمنين أشكو إليك مظلمتي وقتل أخي وترويع نسوتي.. فقال معاوية: يا هذبة قل، فقال هذبة: إن شئت أن أقص عليك قصتنا كلاماً أو شعراً فعلت، قال: لا، بل شعراً، فقال هذبة مرتجلاً:

رُمينا قرامينا فصادف رمينا منايا رجال فى كتاب وفى قدر
وانت أمير المؤمنين فمالنا وراءك من معدى ولا عنك من قصر
فإن تك فى أموالنا لم نضق بها ذراعاً وإن صبراً فنصبر للصبر

فقال له معاوية: أراك قد أقررت بقتل صاحبهم

قال هذبة: هو ذاك

ولم يكن لزيادة ولد إلا فتى صغير يسمى «المِسُور» لم يبلغ الحلم فقال معاوية لعبد الرحمن أخى زيادة: إنك لا تؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق، والمسور أحق بدم أبيه، ورده معاوية إلى المدينة فحبس بها ثلاث سنوات حتى بلغ المسور، وخلال سنوات حبسه كان هذبة يرسل إلى عبد الرحمن يستعطفه ويرجوه أن يقبل الدية، لكن عبد الرحمن أياسه من ذلك وأصر على القصاص. ولما بلغ المسور بن زيادة الحلم أخذه عمه عبد الرحمن إلى والى المدينة سعيد بن العاص، فأخرجوا هذبة ليقتل وبينما كان هذبة ماشياً من السجن للقتل، التفت فرأى زوجته وكانت من أجمل النساء، فقال لها:

أعلى على اللوم يأم بوزعنا ولا تعجبنى مما أصاب فأوجعنا
ولا تنكحى إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعنا
وحلى بذى أكرومة وحمية وصبراً إذا ما الدهر عرض فأسرعنا

ف قالت زوجته للوالى: إن لهذبة عندى وديعة فأمهله حتى آتية بها. فقال لها الوالى: أسرعى فإن الناس قد كثروا. فذهبت إلى جزار فى السوق وأخذت منه شفرته ثم جدعت أنفها من أصله وقطعت شفتيها ثم رجعت إلى هذبة وقالت: أترانى متزوجة بعد ماترى؟

قال هذبة: لا، الآن طابت نفسي بعد بالموت، ثم التفت فرأى أبويه فى أسوأ حال وقد توقعا الشكل، فقال لهما:

أبليانى اليوم صبراً منكما إن حزناً إن بدا يادىء شر
لأرانى اليوم إلا ميتاً إن بعد الموت دار المستقر
اصبرا اليوم فلانى صابر كل حى لقضاء وقدر

اقتربت ساعة هذبة، وبلغت القلوب الحناجر، فهذا أول من أُقيد منه فى الإسلام، وراحت العيون تتحاور والأنفاس تتنافر، وراحت أمه تذكر قول الكاهنة التى رأت أبناءها الأربعة فقالت لها: إن الذى معى يخبرنى عن بنيك هؤلاء بأمر، قالت وما هو؟ قالت: أما هذبة وأخوه حوط فيقتلان صبرا، وأما الواسع وسيحان فيموتان كمدأ.

أراد سعيد بن العاص أن يبذل محاولة أخيرة، فقال لعبد الرحمن أخى زيادة: اقبل الدية وأنا أعطيك ما لم يُعطه أحد من العرب، أعطيك مائة ناقة حمراء، ليس فيها جداء ولا ذات داء فقال عبد الرحمن: والله لو نقبت لى قبتك هذه ثم ملأتها ذهباً، مارضيت بها من دم هذا الأجدع، فلم يزل سعيد يسأله ويزيد فى عرضه فيأبى، ثم قال عبد الرحمن: إنه قال بيتاً لو لم يقله لقبلت الدية أو صفحت بغير دية، والله لو أردت شيئاً من ذلك لمنعنى قوله:

لنجدعن بأيدينا أنوفكم ويذهب القتل فيما بيننا هدرا

فدفعوا بهذبة ليقتل فبدت فى عينيه حسرة، وماندم بشرُّ على قول كما ندم هذبة على قوله هذا البيت، واستأذن فى أن يصلى ركعتين، فأذن له، فصلاهما وخفف، ثم التفت إلى الناس حوله وقال: لولا أن يُظن بى الجزع لأطلتهمما فقد كنت محتاجا إلى إطالتهما، ثم

التفت إلى قوم زيادة قائلاً:

فإن تقتلونى فى الحديد فإنتى قتلت أخاكم مطلقاً لم يقيده

فقال عبد الرحمن: والله لآنقتله إلا مطلقاً من وثاقه، ثم قال:

قد علمت نفسى وأنت تعلمه لأقتلن اليوم من لا أرحمه

ثم دفع السيف إلى المسور بن زيادة وقال له: قم فاقتل قاتل أبىك، فقام المسور فضربه ضربتين قتله فيهما. ومات هذبة، أما امرأته التى جدعت أنفها وقطعت شفيتها فقد تزوجت بعده وأنجبت ولدين.

شعراء قتلهم شعرهم

كعب الأشقرى

هجا بن أخيه فقتله بتحريض من بن المهلب

هو كعب بن معدان الأشقري، من قبيلة الأزد، كان خطيباً وشاعراً، من المعدودين في الشجعان، وكان من أصحاب المهلب بن أبي صفرة وقد مدحه ومدح أبناءه ورافقهم في حروبهم مع الأزارقة، وقد أوفده المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج مبشراً بانتصاره على الأزارقة فأنشده من مدائحه فيهم قوله:

لسولا المهلب مازرنا بلادهم	مادامت الأرض فيها الماء والشجر
ومامن الناس من حى علمتهم	إلا يرى فيهم من سيحكم أثر
فما يجاوز باب الجسر من أحد	قد عضت الحرب أهل الجسر فأنجحروا

فضحك الحجاج وقال له إنك لمنصف يا كعب، أخطيب أنت أم شاعر فقال شاعر وخطيب، فقال له كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال: كنا إذا لقيناهم بعفونا وعفوههم أيسنا منهم، فإذا لقيناهم بجهدنا طمعنا فيهم، قال الحجاج: فكيف كان بنو المهلب؟ قال: حماة للحريم نهاراً وفرسان بالليل أيقاظاً، قال صفهم رجلاً رجلاً، قال: المغيرة فارسهم وسيدهم، نار ذاكية وصعدة عالية، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، ليث غاب وبحر جم العباب، وجوادهم قبيصة ليث المغار وحامى الدمار، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدركة، فكيف لا يفر من الموت الحاضر والأسد الخادر وعبد الملك سم ناقع وسيف قاطع، وحبيب الموت الزعاف، إنما هو طود شامخ وفخر باذخ. قال الحجاج: فأيهم أفضل؟ قال كعب: هم كالحلقة المفرغة لا يعرف طرفاها، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسن حال، أدركوا ما رجوا، وأمنوا ما خافوا، وأرضاهم العدل وأغناهم النفل، قال: فكيف رضاهم عن المهلب؟ قال: أحسن رضى وكيف لا يكونون كذلك وهم لا يعدمون منه رضى الوالد ولا يعدم منهم بر الولد. فقال الحجاج: المهلب كان أعلم بك حيث بعثك وأمر له بعشرة آلاف درهم وأرسله إلى عبد الملك بن مروان بهذه البشرى، فأنشده كعب قوله في المهلب

وأولاده:

براك الله حين براك بحراً وفجر منك أنهاراً غزارا
بنوك السابقون إلى المعالي إذا ما أعظم الناس الخطارا
كانهم نجوم حول بدر درارى تكمل فاستدارا

فاستحسن عبد الملك قوله، وقال لمن حوله من الشعراء: يامعشر الشعراء، تشبهوننا بالأسد الأبحر، والجبل الوعر والملح الأجاج؟ ألا قلتم كما قال كعب فى المهلب وولده، وأنشدهم قصيدة أخرى لكعب يمدح فيها المهلب.

وهكذا عرف كعب الأشقرى بولائه للمهلب وأبنائه من بعده خاصة يزيد الذى كان يقربه ويخلع عليه العطايا والهبات.

ولمكانته عندهم كانوا لا يسمحون للشعراء بهجائه، بل المهلب نفسه تدخل بين الأزد - قبيلة كعب - وعبد القيس حينما قامت بينهما حرب، فسكنها وأصلح بينهما وتحمل ما أحدثه كل فريق وأدى دياته، لكن كعباً هجا عبد القيس بقوله:

إنى وإن كنت فرع الأزد قد علموا أخزى إذا قيل عبد القيس أخوالى
فهم أبو مالك بالمجد شرفنى ودنس العبد عبد القيس سربالى

وكان فى عبد القيس شاعر هجاء يسمى زياداً الأعجم، وقد بلغه قول كعب فغضب وقال: يا عجباً للعبد بن العبد بن الحيتان والسرطان، يقول هذا فى عبد القيس وهو يعلم موضعى فيهم والله لأدعنه وقومه غرضاً لكل لسان، ثم قال يهجوهُ:

نبئت أشقر تهجوناً فقلت لهم ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلقوا

لا يكثرو وإن طالت حياتهمُ ولو يبول عليهم ثعلب غرقوا

قسوم من الحسب الأدنى بمنزلة كالفقع بالقاع لأصل ولا ورق

إن الأشاقر قد أضحوا بمنزلة لو يرهنون بنعلى عبدنا غلقوا

فشكاه كعب إلى المهلب وقال له إنك المقصود بهذا الهجاء، فقال المهلب: أنت أسمعنا هذا وأطلقت لسانه فينا به وقد كنت غنياً عن هجاء عبد القيس وفيهم مثل زياد، فاكفف عن ذكره فأنت الذى بدأته، ثم دعا بزياد فعاتبه، فقال زياد: أيها الأمير، قد سمعت ما قاله فى وفى قومى، فإن كنت ظلمته فانتصر له، وإلا فالحجة عليه، ولا حجة على امرئ انتصر لنفسه ولحسبه وعشيرته، ولولاك أيها الأمير ما قصرت فى هجائه. فأقسم المهلب عليهما أن يصطلحا، فكف كل منهما عن الآخر.

وهكذا كان المهلب يدافع عن كعب بمنصبه ويدافع عنه كعب بشعره. وكان الحجاج قد كتب إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطله ويضعفه ويعجزه فى تأخير أمرهم ومطاولتهم.

فقال المهلب لرسول الحجاج: إنما البلاء أن الأمر لمن يملكه لا إلى من يعرفه، فإن كنت نصبتنى لحرب هؤلاء القوم على أن أدبرها كما أرى، فإن أمكنتنى الفرصة انتهزتها، وإن لم تمكنى توقفت، فأنا أدبر ذلك بما يصلحه، فإن أردت منى أن أعمل وأنا حاضر برأيك وأنت غائب، فإن كان خيراً فلك، وإن كان شراً فعلى فابعث من رأيت مكانى.

فقام كعب الأشقرى فأنشد أمام رسول الحجاج قوله:

إن بن يوسف غره من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار

لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبة الأقطار

من أرض سابور والجنود وخيلنا . مثل القداح بريتها بشفار
من كل خنذير يرى بلبائه وقع الظلمات مع القنا الخطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كل مخالف الأقتار
فدع الحروب لشيبيها وشبابها وعليك كل خزينة معطار

فبلغت هذه الأبيات إلى الحجاج فكتب إلى المهلب يأمره بإرسال كعب إليه، فأعلم
المهلب كعباً بذلك، وأرسله إلى عبد الملك بن مروان ومعه رسالة يسترضيه فيها عن كعب،
فرضى عبد الملك عنه، ولمكانة الحجاج عند بنى أمية رأى عبد الملك أن يرسل كعباً إليه
بكتاب منه وفيه يقسم عليه أن يعفو عنه ويعرض عما بلغه من شعره. فلما وصل كعب إلى
الحجاج قال له: إيه يا كعب.

ورأى معاودة الدباغ غنيمة، فقال كعب: أيها الأمير والله قد وددت في بعض ماشاهدته
في تلك الحروب وأزماتها وفي ما يوردنا المهلب من خطرها أن ألجؤ منها وأكون حجاجاً أو
حائكاً، فقال له الحجاج: أولى لك، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفعتك ما أسمع، فالحق
بصاحبك ورده إلى المهلب.

ويبدو أن علاقة كعب لم تكن طيبة مع يزيد بن المهلب فكان يحرض عليه الولاة
ويدفعهم إلى ترك أعماله، وكان يزيد قد ولى عمر بن عُمير بلدة بحرية بين البصرة وعمان
يقال لها «الترم» فقال له كعب: أنت شيخ من الأزديوليك «الترم» ويولى ربيعة الأعمال
السنية! ثم أنشده قوله:

لقد فازت ربيعة بالمعالي وفاز اليحمدي بمهند رمّ
فلإن تك راضياً منهم بهذا فزادك ريناً غماً بغم

فلما سمع عمرو بن عمير اليعمدي هذا الشعر من كعب أنف أن يقبل هذه الولاية ورد
عهد يزيد عليه، فحلف يزيد ألا يستعمله سنة، فكانت سنة جذب وفقر على عمرو الذي
ندم على ترك هذه الولاية وقال لكعب:

لو كنت خليتي يا كعب متكئاً في دور زمّ لما أقفرت من علف
ومن نبىذ ومن لحم أعل به لكن شعرك أمر كان من خرفى
إن الشقى عمرو من أقام بها يقارع السوق من بيع ومن سلف

ولما عزل يزيد بن المهلب عن خراسان ووليها قتيبة بن مسلم مدحه كعب، ونال من يزيد
وثلبه وهجاء، ثم بلغه أن يزيد قد وليها مرة أخرى، فهرب كعب تاركاً مرواً وخراسان كلها
إلى عمان وأقام بها فترة ثم كرهها لسوء أحواله بها ولم يجد بها من يمدحه ويقربه ويعطيه،
فكتب إلى يزيد بن المهلب معذراً:

بئس التبذل من مرو وساكنها أرض عمان وسكنى تحت أطواد
يضحى السحاب مطيراً دون منصفها كأن أجبالتها علت بفرصاد
يالهف نفسى على أمر خطلت به وما شفيت به غمرى وأحقادى
أفنت خمسين عاماً فى مديحكُم ثم اغتررت بقول الظالم العادى
أبلغ يزيد قرين الجود مألوكه بأن كعباً أسير بين أصفاد
فإن عفوت فبيت الجود بينكم والدهر طوران من غى وإرشاد
وإن مننت بصفح أو سمحت به نزعت نحوك أطنابى وأوتادى

لكن يزيد لم يسامحه ولم يصف له على الرغم من أن أبنته مجزأة رجاء فى ذلك، فداهنه

يزيد حتى رجع وتخير له قاتلاً من قرابته هو ابن أخيه الذى كانت بينهما عداوة وتباعدو قد هجاه كعب بقوله:

إن السواد الذى سربت تعرفه ميراث جديك عن آبائه النوب

أشبهت خالك، خالك اللوم مؤتسياً بهديه سالكاً فى شر أسلوب

فلم يجد بن المهلب إلا ذلك الفتى ليقتل عمه، وقد أغراه بالمال.

شعراء قتلهم شعرهم

عبيد بن الأبرص

رثى نفسه.... فقتله المنذر بن ماء السماء

هو عبید بن الأبرص بن جشم، من بنى أسد التى قتلت حُجراً ملك كندة وأبا امرئ القيس.

اعتبره محمد بن سلام الجمحى من فحول شعراء الجاهلية ووضعه فى الطبقة الرابعة مع طرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة وعدى بن زيد. وقد أحاطت الأساطير بسيرة عبید بن الأبرص كما لم تحط بشاعر قبله، فهناك قصة حول قوله الشعر، أو هى أسطورة إذا أعملنا عقولنا فيها، ونحن لا نملك غير ذلك.

تقول القصة إن عبداً كان رجلاً فقيراً وقد أقبل ذات يوم بغنمه يسقيها ومعه أخته ماويا، فلما ورد الماء منعه رجل من بنى مالك وصدده صداً عنيفاً، فرجع حزينا مهموماً لا يدرى ما يفعل ولا يجد سبيلاً على هذا الرجل فاستظل بشجرات ونام، ونامت أخته إلى جواره، فنظر إليهما خصمه وقال راجزاً:

ذاك عبید قد أصاب ميا ياليتته ألحقها صبيا

فحملت ووضعت ضاويها

وعلى الرغم من أن عبداً كان جاهلياً إلا أنه لم يجد من يستنصره على هذا الرجل وافتراءاته إلا الله، فرفع يديه مبتهلاً قائلاً: اللهم إن كان هذا ظلمنى ورمانى بالبهتان فأدلى منى - أى اجعل لى منه دولة وانصرنى عليه - ووضعه رأسه فنام.

ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر، فأتاه آت فى المنام بكبة من شعر فألقاها فى فمه، ثم قال له قم، فقام وهو يرتجز هاجياً بن مالك وكانوا يسمون بنى الزنية، فقال فيهم:

يا بنى الزنية ما غركم لكم الويل بسريال حُجر

ثم أصبح عبيد بن الأبرص بعد ذلك شاعر بني أسد الذي لا يدافعه أحد.

وفى أسطورة أخرى كان عبيد مسافراً فى ركب من قومه وبينما هم يسرون إذا بشعبان يتملك على الرمال الملتهبة فاتحاً فمه من شدة العطش، وكانت مع عبيد جرعة ماء قليلة لا يملك غيرها، فنزل وسقى الشعبان الجرعة كلها حتى روى وانتعش وانساب فى الرمال. فلما جن الليل ونام القوم هرب رواحلهم فلم يروا أثراً لشيء منها، فقام كل واحد منهم يبحث عن راحلته، فتفرقوا، وقد أيقن عبيد أنه هالك لا محالة، وإذا هو بهاتف يهتف به قائلاً:

يا أيها السارى المضل مذهبة دونك هذا البكر منا فاركبه
وبكرك الشارد أيضاً فاجنبه حتى إذا الليل تجلى غيبه

فحط عنه رحلة وسيه

فقال عبيد: نشدتك الله إلا أخبرتنى من أنت؟

فقال له الهاتف:

أنا الشجاع الذى ألفيته رمضاً فى قفرة بين أحجار وأعقاد
فجدت بالماء لما ضن حامله وزدت فسيه ولم تينخل بإنكاد
الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فركب عبيد الجمل وظل يبحث عن ناقته حتى وجدها ثم جنبها - أى قادها بجانبه - فبلغ أهله مع الصباح فنزل عنه وحل رجليه وخلاه فغاب عن عينه.

من الواضح أن هذه القصة أسطورة صاغت أسفار العرب الطويلة فى رحلة من رحلات الشتاء أو الصيف، حيث الليالى لا تقطعها الرواحل وإنما تقطعها الأسمار العذبة والأشعار

البديعة والأخبار الغريبة.

ويحكى أسطورة ثالثة، سيقف الكاتب، الذى ولى ولاية فنزل بيت صديق له مر عليه، فأصابوا من الطعام والشراب ما أصابوا، ثم غلبهم النبىذ فناموا، فانتبه سيف من نومه فإذا بكلب قد دخل على كلب صاحب البيت، فأخذا يتصافحان وقد فرح كل منهما بصاحبه، ثم أخذ الكلب الزائر يخبر صاحبه عن طريقه وطول سفره، وسيف لا ينكر من كلامهما شيئاً، وقال له: هل عندك شىء تطعمنيه؟ قال نعم قد بقى لهم فى موضع كذا وكذا طعام وليس عليه غطاء، فذهبا إليه وأكلاه، ثم سأله نبىذاً فقال: نعم، فذهبا إليه فشرباه، ثم قال له: هل تطربنى بشىء؟ قال: إى وعيشك، صوت كان أبو زيد يغنيه فيجيده، ثم غنى الكلب صاحبه من شعر عبيد بن الأبرص قوله:

طاف الخيال علينا ليلة الوادى لآل أسماء لم يلهم ليمماد

إنى اهتسديت لركب طال سيرهم فى سبب بين دكداك وأحقاد

فلم يزل الكلب يغنى صاحبه حتى فنى النبىذ، ثم استأذن الكلب الزائر فى الانصراف، فأذن له صاحبه.. ومضى.

يقول سيف الكاتب صاحب القصة: فخفت والله على نفسى أن أذكر ذلك لصاحب المنزل، فأمسكت. وما أذكر أنى سمعت أحسن من ذلك، إن لم تكن هذه القصة أسطورة فهي حلم رآه سيف الكاتب، ويبدو أن صاحبه الذى استضافه قد أحسن عشاءه وسقايته فلم يستطع أن يميز بين الحلم والحقيقة لفرط ما كان غارقاً فيه من شبع ورى.

أو ربما كان هناك شىء فى نفس سيف تجاه أبى يزيد المغنى، فحاك هذه القصة وحبكها ليقول للناس إن غناء الكلاب أحسن من غناء أبى يزيد.

وقد عاصر عبيد بن الأبرص امرأ القيس وكانت له جولة معه بعد أن رفض ما عرضه بنو
أسد من دية لقتل أبيه أو تقديم شريف من أشرافهم مقيداً ليقتل بدم حُجر، لكنه أمهلهم
حتى تضع الحوامل ما في بطونها وقد توعدهم قائلاً: ثم إنكم ستعرفونني في فرسان قحطان
أحكم فيكم بالسيوف وشبا الأسننة حتى أشفي نفسي وأنال ثأري، فقال عبيد في ذلك:

يا ذا المَخُونِنا بِقِنْدٍ تَلْ أَبِيسَ إِذْ لالَ وَحَسِينا

أَرغَمْتَ أَنْكَ قَد قَتَلْتَ لَت سَرَاتِنَا كَلْباً وَمِينا

هَلَا عَلَى حَجَرِ بَنِ أُمِّ قَطَامِ تَبْكِي لِأَعْلِينا

إِنَّا إِذَا عَضَ الثَّقَافُ بِرَأْسِ صَدْعَتِنَا لَوِينا

نَحْمِي حَقِيقَتَنَا وَبِعَمِّ مَضِ النَّاسِ يَسْقُطُ بَيْنَ بَيْنِنَا

هَلَا سَأَلْتَ جَمْعَ كَنِيَّةِ دَةِ يَسُومِ وَلَوْ أَيْنِ أَيْنِنَا

أَيَّامِ نَضْرِبُ هَامَهُمْ بِبَوَاتِرِ حَتَّى انْحَنِينَا

وَجَمْعِ غَسَّانِ الْمَلُو كِ أَتَيْنَهُمْ وَقَدْ انْطَوِينَا

لَحَقْنَا أَيَّاطِلَهُنَّ قَد عَاجِلْنَ أَسْفَاراً وَأَيْنِنَا

نَحْنُ الْأَلَى نَأْجِمِعُ جَمْعُو عَكَ ثَمَّ وَجْهَهُمُ إِلَيْنَا

وَأَعْلَمُ بَأْنَ جَسِيَّادِنَا أَلَيْنَ لَا يَقْضِيَنَّ دِينِنَا

وَلَقَدْ أَبَحْنَا مَا حَمَمِتْ وَلَا مَبِيحَ لِمَا حَمَمِينَا

كَمْ مِنْ رَثِيسٍ قَد قَتَلْ نَاهِ وَضَمِيمٍ قَد أَبِينَا

ولرب أسيد معشر ضخم الدسيعة قد رمينا

ولكن امرأ القيس كان مشغولاً بشأراً أبيه فلم يرد عليه ثم دارت رحى الحرب بين كندة
وبنى أسد حتى قتل قيصر الروم امرأ القيس وانتهت هذه الحرب.

مقتله

كان للملك المنذر بن ماء السماء يومان، يوم يؤس ويوم نعمة، فإذا كان في يوم نعمة أتى
بأول من يراه فحباه وكساه وأعطاه من إبله مائة، وفادمه يومه، فإذا كان في يوم يؤسه أتى
بأول من يراه فيأمر به فيذبح، وبينما النعمان جالس في يوم يؤسه إذ أشرف عليه عبيد بن
الأبرص، فقال لرجل كان معه: من هذا الشقي؟ فقال له: هذا عبيد بن الأبرص الأسدي
الشاعريم فأتى به، فقال له الرجل الذي كان معه: أتركه أبيت اللعن، فإني أظن أن عنده من
حسن القريض أفضل مما تدركه في قتله، فاسمع منه، فإن سمعت حسناً استزدته وإن لم
يعجبك فما أقدرك على قتله. فنزل المنذر وطعم وشرب وهو جالس وبينه وبين الناس
حجاب يراهم منه ولا يرونه، فدعا بعبيد من وراء الستر:

فقال لعبيد صاحب له: هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد؟

فقال: أئتتك بحائن رجلاه

فقال: ماترى يا عبيد؟

قال: أرى الحوايا عليها المنايا

فقال: فهل قلت شيئاً؟

قال عبيد: حال الجريض دون القريض (وهو يقصد أنه قد غص بريقه)

فقال: أنشدني: أقفر من أهله ملحوب

لكن عبيداً لم يستطع أن يقولها وعزت عليه نفسه فرثاها بقوله:

أقفر من أهله عبيد فليس يبدى ولا يعميد

عنت له خطبة نكود وحان منهاله ورود

فقال له صاحبه: أنشدني ويحك

فقال:

هي الخمر تُكنى بأم الطلى كما الذئب يكنى أبا جعدة، وهو هنا يشبه المنذر بالذئب الذي
يكنيه الناس بأبي جعدة أي أبو الفعال الحسنة ولكن أفعاله كلها سوء وهو يقصد أن المنذر
لا ينذر أحداً بل يغدر بالجميع وأبي عبيد أن ينشدهم شيئاً مما أرادوا فأمر به المنذر فقتل.

شعراء قتلهم شعورهم

أبو العبر

كان أحرق العرب ، فقتلته شيعة على

هو أبو العباس محمد بن أحمد وينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب وكان في شبابه شاعراً معتدلاً جيد الشعر فلما شاخ ترك الجدل وعدل إلى الحمق حتى إن تاريخ الأدب العربي لم يرَ شاعراً أحمق منه، ومع ذلك فقد كسب بحمقه أضعاف ما كان يكسبه الشعراء بالجد والجيد وحقق أيام المتوكل شهرة كبيرة وثراءً عظيماً.

وعلى الرغم من أنه كان بن عم الخليفة إلا أن الناس كانوا يحتقرونه بل ويتعجبون من تقريب المتوكل له مع أنه معرة لبنى آدم جميعاً فضلاً عن أهله الأقربين.

فهو أحمق جاهل فاسق بينما كان قوم آخرون يرون أن هذه الصفات ليست متأصلة فيه وإنما هو يفتعلها للكسب بعد أن رأى أشعار أبي تمام والبحترى وغيرهما من كبار الشعراء لا تفيد شيئاً ولا تحقق ثراءً، وكان فريق ثالث يرى أن يكون الشعر جيداً جيداً أو بارداً بارداً مثل شعر أبي العبر، فكانوا يضربون بشعره المثل في السخف والبرود.

أنشده صاحبة أبو العناء، قول المأمون:

مـا الحـب إلا قـبـلة	ومس كـف وعـضـضـد
أو كـتب فـيـهـا رقى	أنفـد من نفـث العـقـد
من لـم يـكن ذا حـبـة	فإنـما يـبـغى الولـد
مـا الحـب إلا هـكـذا	إن نـكـح الحـب فـسـد

فقال أبو العبر: كذب المأمون وأخطأ وأساء، ألا قال كما قلت:

وباض الحب في قلبى فـلـمـا وىلى إذا فـرـخ

وأتبع هذا البيت بيتين لم تعرف العرب أفحش منهما ثم سألت صاحبه: كيف ترى؟

فقال: عجباً من العجب، قال أبو العبر: ظننت أنك تقول لا، فأبل يدي و أرفعها ثم سكت فبادر صاحبه وانصرف خوفاً من شره.

وكما كان للشعراء طقوساً في إنشادهم وإملائهم أشعارهم كانت لأبي العبر طقوسه التي تتناسب تماماً مع شخصيته، فقد كان يجلس على سلم وبين يديه إناء فيه ماء لجس وحماة وبجانبه قصبة طويلة وعلى رأسه نعل وفي رجليه قلنسيتان بينما يجلس مستمليه في جوف بئر وحوله ثلاثة رجال يدقون بالهواوين حتى تكثر الضوضاء ويقل السماع ويملى على الرجل، فإن ضحك أحد ممن حضر قاموا فصبوا على رأسه من ماء «البلاعة» إن كان وضيعاً، فإن كان ذا مروءة رش عليه هو من مائها بالقصبة ثم يحبس في الكنيف إلى أن ينفض المجلس ولا يخرج منه حتى يغرم درهمين.

سأله أعرابي عن هذه المحالات التي يتكلم بها وكيف يصل إليها فقال: أبكر فأجلس على الجسر ومعى الخبر والورق فأكتب كل شيء أسمع من كلام الداهب والجاهل حتى أملأ الورق من الوجهين، ثم أقطعه عرضاً وألصقه مخالفاً، فيجىء كلام ليس في الدنيا أحقق منه.

ولم يكن سلوكه أقل حمقاً من شعره، وقد رآه أعرابي واقفاً على شجرة في وادٍ بمنطقة سرّ من رأى وفي يده اليسرى قوس يرمى به كرات من الطين وعلى يده اليمنى عقاب، وعلى رأسه قطعة من رئة عنز ربطها في حبل مشدود بأنشوطة وعلى شفثيه آثار من شراب التمر وكان عارياً يربط على خصره شعراً مفتولاً وقد شد فيه شص قد ألقاه في الماء للسّمك. فقال له الأعرابي: خرب الله بيتك أي شيء هذا العمل؟ فرد عليه أبو العبر قائلاً: أبطاد يا أحقق بكل جوارحي، إذا مربى طائر رميته عن القوس وإن سقط قريباً مني أرسلت إليه العقاب، والرئة التي على رأسي يجيء الحداً ليأخذها فيسقط في الحبل وقد

جعلت فى طرفه الأنشودة، وشراب التمر على شفتى أصطاد به الذباب فأجعله فى الشخص
 فيطلبه السمك فيقع فيه، والشخص فى خصرى فإذا مرت به السمكة أحسست بها فأخرجتها.
 ويبدو أن أبا العبر قد أعيا المتوكل أمره ولم يستطع معاقبته عقاباً صارماً، لقرايته من
 ناحية، ولأنه كان يظن به الجنون من ناحية أخرى، فكان يضعه فى المنجنيق ويرمى به إلى
 الماء، فكان إذا علا فى الهواء صاح: الطريق الطريق، جاءكم المنجنيق، ثم يقع فى الماء
 فيخرجه السباح، وفى مرة أخرى كان المتوكل يجلسه على زلاقة فينحدر فيها حتى يقع فى
 بركة ثم يأمر رجاله فيطرحوا الشبكة فيخرجوه.

وفى ذلك يقول أبو العبر:

ويأمر ربي الملك	فـيطرحنى فى البـرك
ويصطادنى بالشـبك	كـأنى من السمك
ويضحك كك كك	كـك كـك كـك

وامتدت حماقات أبى العبر إلى بغداد فحبسه إسحاق بن إبراهيم المصعبى، وبينما هو فى
 محبسه صاح فى الحرس: لى نصيحة، فأخرجوه إلى إسحاق فقال: هات نصيحتك، فقال:
 على أن تؤمننى، قال إسحاق: قد أمنتك، قال أبو العبر: الكشكية أصلحك الله لا تطيب إلا
 بالكشك، فضحك إسحاق وقال: هو والله مجنون، فقال أبو العبر: لاهو امتخط حوتاً،
 فقال: ماتقصد بقولك امتخط حوتاً؟ فقال أبو العبر: زعمت أنى مججت نوناً وما فعلت إلا
 امتخطت حوتاً، فكلمة مجنون قسمها أبو العبر إلى قسمين أولهما مج ويرادفهما امتخط
 وثانيهما نون ومرادفها حوت.

ففهم إسحاق ما قاله وتبسم وقال: أظن أنى فيك مأثوم، فقال: لا ولكنك فى ماء بصل،

فقال إسحاق: أخرجوه عنى إلى لعنة الله ولا يقيم ببغداد ولا يوماً واحداً فأرده إلى الحبس فعاد أبو العبر إلى سرٍّ من رأى.

ويبدو أن حماقته وفحشه كانا سببا فى ضياع أغلب شعره، فلم يورد له الأصفهاني فى كتابه «الأغاني» إلا بضع مقطعات صغيرة ولم تزد على ذلك المراجع العربية القديمة الأخرى، فلم أعثر له فى الغزل إلا على مقطعة صغيرة خالية من الحمق والسخف والخروج الذى اشتهر به، ويبدو أن قاله قبل أن يغير منهجه فى الحياة وفى الشعر، وهى بجودتها تشير إلى شاعر غزل متمكن ذى حس مرهف وقلب نابض بالهوى، يقول فيها:

دأء دفين وهوى بآدى	أظلم فجأزيك بمرصاد
يا واحد الأمة فى حسنه	أشمت بى صدك حسادى
قد كدت مما نالنى فى الهوى	أخفى على أعين عوادى
عبدك تحى نفسه قبله	يجعلها خاتمة الزاد

إن نظرة لهذه الأبيات تجعلنى أشك فى أن قائلها اختار بمحض إرادته العدول عن هذا الشعر ليقول ما قاله من أبيات حمقاء سخيفة، ولست مع من تعللوا له بالرغبة فى الشراء الذى لم يحققه غيره من الشعراء الجادين المجيدين، فقد كان أبو العبر ذا قرابة من الخليفة وهذا وحده كفيل بأن يغنيه أمير المؤمنين كما أغنى غيره من أقربائه، فضلاً عن عامة المسلمين.

ولكننى أرجح أن لوثة قد أصابت عقله فتحول هذا التحول الغريب، وهذا ليس غريباً على الشعراء فهم لركة إحساسهم من ناحية ولعبقريتهم من ناحية أخرى، أقرب الناس إلى الإصابة بالجنون، وتاريخ الأدب العربى ملئ بالشعراء المجانين أو المجانين الشعراء كقيس

بن الملوح صاحب ليلى الذى لم يشتهر باسمه وإنما اشتهر بصفة الجنون.

ولأبى العبر أبيات فى الفخر تدل على أن قائلها صاحب نفس أبية عزيزة يصعب عليها
أن تتحول بهذا الشكل، طلباً للمال، يقول:

وإذا ما الدهر ضمض عني	لم تجدننى كافر النعم
قنعت نفسي بما رزقت	وتناهت فى العلامى
ليس لى مال سوى كرمى	وبه أمنى من العدم

مقتله

ويبدو أن جنونه لم يبد فى شعره وفى سلوكه فحسب وإنما بدا أيضاً فى موقفه المذهبى،
فقد كان شديد البغض لعلى بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وله فى العلويين هجاء قبيح،
ويبدو أن المراجع لم تورد هذا الهجاء تكريماً لعلى وهو فى الأمة من هو، وكان أبو العبر قد
خرج إلى الكوفة ليرمى بالبندق مع الرماة من أهلها فى الأشجار والكوفة موطن شيعة على
فقال فيه أبو العبر شعراً قبيحاً سمعه أحد الكوفيين فاستحل دمه وقتله وأغرقه.

شعراء قتلهم شعرهم

السُّلَيْكُ بْنُ السُّلَكَةِ

كَانَ مِنَ الصُّعَالِيكِ
وَاسْتَجَارَ بِقَوْمٍ وَهَجَاهُمْ فَقَتَلُوهُ

هو السليك بن عمرو من بنى مقاعس، أما السلكة فهي أمه وكانت أمه سوداء.

كان السليك من صعليك العرب وهي طائفة من الشعراء ضمت الشنفرى وتأبط شراً وعمرو بن براق ونفيل بن براءة وغيرهم، وكانوا يعيشون حياة مختلفة عن حياة العرب، فهم على فقرهم يتميزون بالأنفة والإباء والترفع عن الصغائر والدنايا وحقير الأعمال، بل يعتمدون في حياتهم على القوة والبطش وانتهاز الفرص وخفة الحركة وسرعة العدو والهجوم الخاطف والسلب والنهب والبطش بالأعداء مع الحرص على البر بالضعفاء والمحتاجين.

وكثر أشعاهم التي تلعن الصعلوك الفقير الذي يرضى بالاستكانة والمهانة ويألف الكسل والخمول، ويكتفى في طعامه بأن يبحث في المهملات عن بقايا اللحوم الملقاة، وإذا جاد عليه صديق بأكلة، عد نفسه من الأغنياء، بينما تمجد هذه الأشعار الصعلوك الأبي الذي لا ينال الفقر من قوة شخصيته ومهابتة التي يحسب لها الأعداء ألف حساب مهما كانوا منه قريين أو بعيدين، فهو يملأ النفوس رهبة وفزعاً، فإذا عاش، عاش كريماً، وإذا مات مات حميداً.

وكان السليك من أشد رجال العرب وأشعرهم، وكانت العرب تسميه سليك المقائب حيث كان أعلمهم بمسالك الصحراء ودروبها وأشدهم عدواً على رجله فكانت الخيل لا تدركه.

وكان يعتمد على قوته فيغير وحده على قبائل فينهبها وربما رافقه في غارته صعلوك أو اثنان، وكان للسليك دعاء مشهور يقول فيه: اللهم إنك تهىء ماشئت لما شئت إذا شئت، اللهم إني ولو كنت ضعيفاً، كنت عبداً، ولو كنت امرأة، كنت أمة، اللهم إني أعود بك من

الخبيّة، فأما الهيبة فلا هيبة.

اشتد الفقر على السليك فخرج ليلاً على رجله عسى أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه فيأخذ إبله، ولما طال انتظاره وضع رأسه على عضده ونام في الخلاء، فجاء رجل ونام إلى جواره، فقال له السليك: من أنت؟ فقال: أنا رجل افتقرت فقلت لأخرجن فلا أرجع إلى أهلي حتى استغنى، قال السليك: انطلق معي إذن، فانطلقا معاً فوجدأ رجلاً له مثل فقرهما فانطلقا الثلاثة يبحثون عمن ينهبونهم حتى بلغوا وادياً فيه إبل كثيرة، فقال السليك لصاحبيه: كونا قريباً مني حتى أعلم لكما علم الحى أقرب أم بعيد، فإن كانوا قريباً رجعت إليكما، وإن كانوا بعيداً قلت لكما قولاً أو أومىء إليكما به، فأغيرا.

وانطلق حتى أتى الرعاء وأخذ يستدرجهم في القول حتى أخبروه بمكان الحى وعرف أنهم بعيد، فقال للرعاء: ألا أغنيكم؟ فقالوا: بلى، غننا فرفع صوته وغنى:

ياصاحبى ألا لآحى بالبواذى سوى عبيد وام بين أذواد

اتظران قريباً ريث غفلتهم أم تغدوان فإن الريح للفادى

فلما سمع صاحباه ذلك أتياه وأخذوا الإبل وذهبوا بها ولم يبلغ صياح العبيد الحى حتى كان السليك وصاحباه فى مأمنهم.

والقصص التى تصور شدة السليك وسرعته فى العدو كثيرة وقد رآته طلائع جيش بكر بن وائل وكانوا يقصدون قومه فقالوا: إن علم السليك بنا أنذرهم، فبعثوا إليه فارسين على جوادين، فلما طاردها ظل يجرى على رجله كأنه ظبى، وأمضيا النهار كله وراءه، ثم قالوا: إذا كان الليل أعيا ثم سقط أو قصر عن العدو فناخذه، فلما أصبح الصباح تبعاه فوجدوا أثره

متباعدة فعلموا أنه ما يزال قويا، وخافا على نفسيهما الضياع في الصحراء، فقالا: والله لانتبعه
أبدأ وانصرفا عنه، ووصل السليك إلى قومه فأنذرهم، فكذبوه لبعد الغاية، فأنشأ يقول:

يكذبني العمران، عمرو بن جندب وعمر بن سعد والمكذب أكذب

ثكلتكما إن لم أكُن قد رأيتها كراديس يهديها إلى الحى موكب

كراديس فيها الخوفزان وقومه فوارس همام متى يدع يركبوا

وجاء الجيش فأغاروا على القوم فعلموا أن السليك كان صادقا.

وكان السليك إذا شرب الماء ثقل وقلت سرعته، وقد أغار على قوم من بني مالك، فلم
يظفر منهم بفائدة وأرادوا الإمساك به، فقال شيخ منهم: إنه إذا عدا لم يتعلق به شيء فدعوه
حتى يرد الماء فإذا شرب وثقل لم يستطع العدو وظفرت به.

فأمهلوه حتى ورد الماء، فشرب ثم بادروه، فلما علم أنه مأخوذ خاتلهم، وقصد أقرب
بيوتهم حتى دخل على امرأة منهم تسمى «فكيهة» فاستجار بها، فمنعته وجعلته تحت درعها
واستلت السيف وقامت دونه فكثر عليها القوم فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت
بإخوتها فجأؤها ودفنوها عنه حتى لحا من القتل، فقال في ذلك:

لعمري أهلك والأنباء تنمى لنعم الجار أخت بني عوارا

من الخفرات لم تفضح أباهي ولم ترفع لإخوتها شنارا

وماعجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

كان السليك يعطى رجلاً من خثعم يسمى عبد الملك بن مويك إتاوة من غنائمه على أن
يجيره، فيتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من أهل اليمن فيغير عليهم.

وقد لقي سليك رجلاً من خثعم يقال له مالك بن عمير خارج أرضه ومعه امرأته وتسمى النوار، فأسرهما السليك فقال له الرجل: أنا أفدى نفسي منك، فقال السليك: على ألا تخيس بي ولا تطلع على أحدٍ من خثعم، فحالفه على ذلك وترك امرأته رهينة عنده ورجع إلى قومه، فأصاب السليك النوار فأحبته وجعلت تقول له إحذر خثعم فإنى أخافهم عليك، فقال:

تهددنى كى أحذر العام خثعما وقد علمت أنى أمرؤ غير مسلم
وما خثعم إلا لئام أرقاة إلى اللذ والإسخاف تنمى وتنمى

فبلغ ذلك الشعر رجلين من خثعم هما شبل بن قلادة وأنس بن مدرك، فقالا: أيقول ذلك فينا ونحن مجيروه؟

فلم يشعر السليك إلا وقد أدركاه فى الخيل والسلاح والرجال فأنشأ يقول:

من مبلغ حرباً أنى مقتول يارب نهب قد حوت عثكول
ورب قرن قد تركت مجدول ورب زوج قد نكحت عطبول
وررب عان قد فككت مكبول ورب واد قد قطعت مشبول

فقال أنس لشبل: إن شئت كفيتك أصحابه واكفى السليك، وإن شئت اكفى أصحابه أكفك السليك.

فقال شبل: بل أكفيك أصحابه.

فشد شبل وأصحابه على أصحاب سليك فقتلوهم، وشد أنس مع رجاله على السليك فقتلوه.

شعراء قتلهم شعرهم

الكميت

ولد الكميت بن زيد أيام مقتل الحسين بن على - رضى الله عنهما - فوضع صغيراً من صدر الفجيرة الكبرى وتنفس من زفرات الملكومين فيها وأرقت مهده الصغير أنات الشكالى من شيعة الحسين بل ومن شيعة بنى هاشم.

طبع الكميت على حب بنى هاشم والتشيع لهم، وهو كشاعر كان عليه أن يعبر عن ذلك الحب ويصوره بأسلوبه، لكن أن تحب هاشمياً فى عصر ثقلت عليه يد بنى أمية فهذا جهاد، وأن تجهر بهذا الحب فجهادٌ أعظم، وأن تجهر به شعراً - مع ما للشعر من قوة فى التأثير على النفوس وسرعة فى الانتشار - فهذا هو الجهاد الأعظم.

ومن خلال ثقافة الكميت كفقيه ومعلم للصبيان، ومن جهة أخرى كرجل متشيع لبنى هاشم، وعلى مذهب الزيدية - وهم أتباع زيد بن على بن الحسين بن على وهم أكثر فرق الشيعة اعتدالاً فى تشيعهم لعلى وآل بيته - ومن خلال صلته الوثيقة بالفكر المعتزلى عن طريق صاحبه زيد بن على، وواصل بن عطاء رأس المعتزلة، من خلال ذلك كله استطاع الكميت أن يكون لنفسه رؤيته الخاصة للأحداث قديمها وحديثها، وأن يكون رأياً حراً لا تؤثر عليه المؤثرات الحكومية «الأموية» استطاع الكميت أن يمهد للشعر أرضاً جديدة تحت سماء التشيع، كما استطاع أن يمهد للشيعة أرضاً جديدة تحت سماء الشعر، يمكنهم فى ظله أن يظهروا محبتهم لآل البيت، ويحتجوا لحق أئمتهم فى الخلافة، ويبرزوا الجوانب الدينية والإنسانية فى شخصية الأئمة، بل يمكنهم من خلاله أن يظهروا حزنهم وتفجعهم على الشهداء من أئمتهم، على الرغم من أن ذلك كان محظوراً وإن لم يكن حظره معلناً.

ولقد سار على درب الكميت شعراء عرفوا بحبهم لآل البيت وخصوهم الولاء وأكثروا القول فيهم، منهم كثير عزة، والسيد الحميرى، وأيمن بن خزيم، وأبو الأسود الدؤلى، وهم قلة غير أن واحدهم كثير على الدولة الأموية وكفيل شطر بيت لأقلهم شهرة أن يغرس

الشوك فى مضجع أعتى خلفاء بنى أمية فلا يدرك النوم حتى يفتك بقائله.

كتب الكميت مجموعة من القصائد يمدح فيها بنى هاشم، ويهجو بنى أمية ويوازن بين عدل الأئمة وجور الخلفاء الأمويين، وعرفت هذه المجموعة من القصائد باسم «الهاشميات»، منها قوله:

نفى عن عينك الأرقُ الهجوعا	وهم يمتري ^(١) منها الدموعا
لفقدان الخضارم ^(٢) من قريش	وخير الشافعين معاً شفيعا
لدى الرحمن يصدع بالثاني ^(٣)	وكان له أبو حسن قريعا
حطوطاً ^(٤) من مسيرته ومولى	إلى مرضاة خالقه سريعا
وأصفاه النبى على اختبار	بما أعيا الرفوض له المديعا
ويوم الدوح ^(٥) دوح غديرخُم ^(٦)	أبان له الولاية أو أطيما
ولكن الرجال تباعوها	فلم أر مثلها خطراً مبيعا
فلم أبلغ بها لعنا ولكن	أساء بذاك أولهم صنيعا
فصار بذاك أقربهم لعدل	إلى جور وأحفظهم مضيعا
أضاعوا أمر قائدهم فضلوا	وأقومهم لدى الحدثن ^(٧) ريعا

(١) يمتري: يحلب

(٢) الخضارم: السادة

(٣) الثانى: القرآن الكريم، والمراد يشق عصا الكفر بالقرآن

(٤) الحطوط: السريع

(٥) الدوح: الشجر، مفردها دوحة

(٦) غديرخُم: موضع بين مكة والمدينة

(٧) الحدثن: الحادثة

تناسوا حقه وبنوا عليه بلا ترة وكان لهم قريعا

من خلال هذه الآيات تلمح الكميت وقد استبد به الأرق والههم الذي قرح جفنيه من كثرة بكائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده من آل البيت الكريم، ثم بعد ذلك يأخذ في الاحتجاج لحق على كرم الله وجهه في الخلافة، ويؤيد ذلك الحق بعرض خصال الإمام على فيصفه بأنه يسارع إلى إرضاء خالقه عز وجل، ثم يحتج بأن الرسول أوصى بخلافة على في يوم عُرف بيوم غدیر خم، ثم يعيب على الصحابة موقفهم حين سلبوا عليا حقه في الولاية وتركوا أمر الرسول فصاروا مضيعين للحق^(١).

وفي موضع آخر من الهاشميات يقول الكميت:

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا	أرضى بشتى أبى بكر ولا عمرا
ولا أقول وإن لم يعطيا فدكا ^(٢)	بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به	يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا
إن الرسول ررسول الله قال لنا	إن الولي على غير ما هجرا
في موقف أوقف الله النبي به	لم يعطه قبله من خلقه بشرا
هو الإمام إمام الحق نعرفه	لا كاللذين استذلانا بما أثمرنا

يتكلم الكميت بحنجرة الشيعة الزيدية، ويحس بأحاسيسهم وينبض قلبهم جميعاً بحب آل البيت عامة وحب على خاصة، وهو في هذه المقطعة يصرح بهذا الحب، ولكنه مع حبه

(١) نلفت نظر القارئ إلى أننا نشرح وجهة نظر الكميت ولانتبهاها

(٢) فدك. قرية بالحجاز

الشديد لعلّى يرفض أن يتناول أميري المؤمنين أبا بكر وعمر بالسب أو اللعن، فهو يعتقد بجواز إمامتهما - كما يقرر ذلك مذهب الشيعة الزيدية - مع وجود من يفضلهما وهو الإمام عليّ كرم الله وجهه.

يشير الكميت إلى القرية التي أفاء الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم قرية فدك - والتي طالبت بها ابنته السيدة فاطمة بعد وفاته، فأبى أبو بكر عطاءها إياها وكذلك فعل من تبعه من الخلفاء، فالكميت يرى أنه على الرغم من ذلك لا يصح رميهم بالكفر ويفوض الأمر فيهم إلى الله تعالى، ثم يؤكد الكميت على إمامة عليّ ويحتج له بأن الرسول أوصى له بذلك صراحة.

وفى هاشمية أخرى يقول الكميت

طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب	ولا لعباً منى وذو الشيب يلعبُ
ولم يلهنى دار ولا رسم ^(١) منزل	ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا السانحات ^(٢) البارحات عشية	أمرّ سليم القرن أم مرأعضب ^(٣)
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى	وخير بنى حواء والخير يطلب
إلى النفر البيض ^(٤) الذين بحبهم	إلى الله فيما نابنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبی فإننى	بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

(١) رسم: الأثر اللاصق بالأرض من أطلال المنازل

(٢) السانحات ما يمر من الطير ناحية اليمين، وكانت العرب تتفاءل به، والبارحات: ما يمر إلى اليسار وكانت العرب تتشاءم منه

(٣) الأعضب: المكسور القرن

(٤) البيض: جمع أبيض وهو الشريف الحر

خفضت لهم منى جناحي مودة	إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنيت لهم من هؤلاء وهؤلاء	محباً على أنى أذم وأقصب ^(١)
وأرمى وأرمى بالعمداواة أهلها	وإنى لأوذى فيهم وأؤنب
ومالى إلا آل أحمد شيعه	ومالى إلا مذهب الحق مذهب
بخاتمكم غصبا تجوز أموركم	فلم أر غصباً مثله يتغصب
وجدنا لكم فى آل حاميم ^(٢) آية	تأولها منا تقى ومعرب
وفى غيرها آيا وآيا تتابعمت	لكم نصب فيها لدى الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا	وبالفل ^(٣) منها والرديفين ^(٤) نركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا	وماورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلاً على الناس واجباً	سفاهاً وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث بن أمنة الذى	به دان شرقى لكم ومغرب
يقولون لم يورث ولولا ترائنه	لقد شركت فيه بكيل وأرحب ^(٥)
وعك ولخم والسكون وحمير	وكنده والحيان: بكر وتغلب
وماكنت الأنصار فيها أذلة	ولا غيباً عنها إذا الناس غيب

(١) أقصب: أعاب وأشتم

(٢) آل حاميم: السور القرآنية المبدوءة بـ «حم» وهى غافر، فصلت، شورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف

(٣) الفل: الفرد

(٤) الرديف: هو الذى يركب خلف الراكب

(٥) بكيل وأرحب والبيت التالى كله: أسماء قبائل عربية

هم شهدوا بدرأ وخير بعدهما
وهم رثموها غير ظئر وأشبلا
وأيوم حنين والدماء تصيب
عليها بأطراف القنا وتحذبوا
فإن هي لم تصلح لقوم سواهم
فإن ذوى القربى أحق وأقرب

كأصحاب القضايا والمهتمين بالمشكلات العليا لم يكن الكميت يطرب أو يشتاق كما يشتاق أترابه لجارية بيضاء يلاعبها وتلاعبه، ولم يكن كذلك من الشعراء الذين يرون من الرسوم الدارسة موضوعات تدور حولها حياتهم وبالتالي قصائدهم، ولم يكن كذلك من الشباب اللاهى العاثر الذى لا يجد ما يضيع وقته فيه سوى استطلاع الغيب عن طريق العادات الجاهلية الذميمة مثل زجر الطير، ولكنه - وهو الرجل المحب لآل البيت فى دولة عدوهم - لم يكن له هم سوى إرضائهم وتبنى الدفاع عن حقهم المغتصب فى الخلافة، فهم أهل الفضائل والعقول الراجحة، وهم خير الأبناء لخير الأمهات وهى السيدة «فاطمة الزهراء» رضى الله عنها وأرضاها، وهذه براعة استهلال محمد عليها قريحته الشعرية، فهو يشد السامع من أول القصيدة ويجذبه من خلال تجديد لم تعهده القصيدة العربية التى عرف عمودها بالبدا بالوقوف على الأطلال، ثم ذكر الحبيبة النائية، ووصفها بما تيسر من صفات الشرف والرفعة ولا بأس من التعرض لمفاتها فى بيت أو بيتين، ثم وصف الخيل أو الناقة ثم الخلاص من ذلك كله إلى الغرض الأساسى فى القصيدة من مدح أو فخر أو غزل أو رثاء أو هجاء ثم فى ختام القصيدة تكون هناك حكمة أو مجموعة من الحكم يطلقها الشاعر.

الكميت إذن سبق العصر العباسى إلى كسر عمود القصيدة العربية، ألم يطلع علينا بقصائد مختلفة تماما فى بنائها عن المعتاد فى ذلك العصر؟! ولقد كان شعره بما يحويه من إرهابات التجديد موضع إعجاب من كبار شعراء عصره، فهاهو الفرزدق يستمع إليه بإنصات شديد وهو يقول:

طربت وماشوقاً إلى البيت أطربُ

فقال له الفرزدق: فيم تطرب يا ابن أخي؟ فقال:

ولالعباً منى وذو الشوق يلعبُ

قال الفرزدق: بلى يا ابن أخي، فالعب فإنك في أوان اللعب، فقال:

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ولم يتطربنى بنان من غضب

فقال الفرزدق: ما يطربك يا ابن أخي؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

فقال الفرزدق: أجل لا تطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بنى حواء والخير يطلب

فقال الفرزدق: ومن هؤلاء؟ ويحك، فقال:

إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالنى أتقرب

قال الفرزدق: أرحنى، ويحك، من هؤلاء؟ فقال:

بنى هاشم رهط النبى فإبنى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

فقال له الفرزدق: يا ابن أخي، أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى.

لم يكن الفرزدق لينصت ذلك الإنصات ويتلهف على الاستماع ذلك التلهف لشاعر صبى يلقي عليه أولى محاولاته، إلا إذا أدرك الفرزدق أن هناك شيئاً جديداً لم يسمعه من

غيره من الشعراء، ولم يكن ليطلق عليه «أشعر من مضى وأشعر من بقى» على سبيل المجاملة أو التشجيع، فلم تكن الساحة الأدبية وقتئذٍ تعرف تلك المجاملات البلهاء التي نراها اليوم على ألسنة المتناقدين موجهة للمتشاعرين، ولم يكن الفرزدق ليقول ذلك إلا تقديرًا منه - وهو رجل ذو تاريخ شعري طويل وحساسية نقدية نفاذة - لما يقول الكميت من شعر لم تسمع العرب مثله.

بعد هذه المقدمة يتعرض الكميت للأمويين مغتصبى الخلافة من الهاشميين أصحاب الحق فيها، ويقرر أنه اغتصاب لم يُر مثله فى تاريخ البشرية فقد أصبح الأمويون يجوزون أمورهم بخاتم الخلافة، وهو خاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، وبنو هاشم أحق به منهم، وقد عبر الكميت عن الأمويين بضمير الغائبين «هم» ولم يصرح باسم أحد منهم، وليس هذا جبنًا منه أو احتراسا أو وسيلة للهروب من المسألة، فالقصيدة كلها صفقة على وجه الأمويين، وإنما استخدام الضمير هنا جاء للتعميم، فكأنما المقصود بالذم ليس الأمويين وحدهم وإنما كل من يمكن أن يكون فى مكانهم من اغتصاب الخلافة، بمعنى أى «هم» أو أى قوم كانوا، وبذلك يخرج الكميت نفسه من دائرة العداة الشخصى لبنى أمية، فهو لا يقصدهم كقوم وإنما يقصدهم لموضعهم الذى وضعوا أنفسهم فيه من اغتصاب الخلافة، وكأن القضية قد أصبحت عند الكميت ذات طرفين، طرفها الأول بنو هاشم وطرفها الثانى «هم».

ثم يلجأ الكميت إل كتاب الله عز وجل أويًا إلى ركنه الشديد علّه يجد فى آياته ما يؤازره ويدعمه، فىرى فى بعض سوره بعض آيات تثبت حق أهل البيت فى الخلافة، منها قوله تعالى فى سورة الشورى «ذلك الذى يشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور

شكور»^(١)، ثم يتهم بنى أمية بأن لهم غاية فى تأويلها على غير وجهها، ولكن هذا التأويل سوف يتعهم الوصول إليه.

ثم يأسى الكميت لهذه الحالة التى وصلت إليها الدولة الإسلامية، فقد أصبح الأمويون يرثون الخلافة عن آبائهم، فى الوقت الذى رفضوا وراثتها لبنى هاشم من النبى واحتجوا بأن الأنبياء لا يرثون، ويقرر الكميت حجتهم هذه بأن النبى لو لم يكن النبى يورث لكانت الخلافة حقاً عاماً لجميع المسلمين وليست قاصرة على قريش فضلاً عن بنى أمية، بل كان للأنصار الحظ الأكبر فيها، فهم الذين آووا ونصروا نبى الأمة، بعد أن تخلت عنه بل وحاربتة قريش، وقد شهد الأنصار غزوة بدر وخيبر وحنين ودفعوا دماءهم لنصرة الإسلام، وقد قبلوا الإسلام ورعوه رعاية الأم لأولادها الصغار.

ثم يخلص الكميت إلى أن الخلافة تورث، بدليل وراثة بنى أمية لها عن طريق آبائهم، ثم يرى أنها من حق آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم فهم أقرب الأقربين له وأحق الناس بوراثته، ويتج حتماً عن ذلك أن بنى أمية مغتصبوا هذه الخلافة وليس لهم حق فيها.

وفى إحدى الهاشميات يقول الكميت:

بل هوأى الذى أجن وأبـدى	لبنى هاشم فـروع الأنـام
للـقـريـبين من نـدى والبـعـيد	من من الجـور فى عـرى الأحـكام
والمـصـيبين باب ما أخطأ النـا	س ومرسى قـواعد الإـسلام

والغيوث الذين إن أمحل ^(١) الناس
 س فمأوى حواضن الأيتام
 راجحى الوزن كاملى العدل فى السير
 طبين ^(٢) بالأمور العظام
 غالبين هاشميين فى العلـ
 م ربّوا ^(٣) من عطية الملام
 وهم الأخدون من ثقة الأمـ
 ربّتقواهم عرّى لا انفصام
 س سواءً أو رعية الأنعام
 لا كمبد المليك أو كوليد
 أو سليمان بعد أو كهشام
 رأيه فيهم كراى ذوى الثلة ^(٤)
 فى الثائجات ^(٥) جنح الظلام
 جز ذى الصوف وانتقاء لذى الـ
 مخّة ^(٦) لغفا ودعدعا ^(٧) بالبهام ^(٨)
 وهم الأوفون بالناس فى الرا
 فة والأحلمون فى الأحلام
 أخذوا القصد واستقاموا عليه
 حين مالت زوامل ^(٩) الآثام
 والوصى ^(١٠) الذى أمال
 به عرش أمة لا انهدام
 قتلوا يوم ذاك إذ قتلوه
 حكماً لا كغابر الحكمـ
 الإمام الزكى والفارس المـ
 لم تحت المعجاج غير الكهام
 راعيا كان مسجحا فقدنا
 ه وفقد المسيم ^(١١) هلك السوام

(١) أمحل الناس: أصابهم الجذب (٢) طبين: حاذقين (٣) ربوا: زادوا (٤) الثلة: جماعة الغنم
 (٥) الثائجات: جمع ثائجة وهى الصائحة من الضأن (٦) ذو المخّة: السمين (٧) دعدعا: صوت تنادى به الغنم
 (٨) البهام: أولاد الضأن والمغز (٩) الزوامل: جمع زاملة وهى الناقة التى يُحمل عليها المتاع
 (١٠) الوصى: يريد علياً بن أبى طالب (١١) المسيم: الراعى الذى يضع علامة على الماشية

الكميت فى هذه القصيدة يحاول أن يلفت النظر إلى الجانب الإنسانى للهاشميين بعد أن أصبح كمالهم الدينى أمراً مفروغاً منه، أليسوا آل بيت النبى وهم أهل التقوى والورع، الكميّ إذن يريد الوصول ببنى هاشم إلى درجة الكمال الإنسانى أو المثالية الإنسانية، ديناً وخلقاً، فيصفهم بالكرم، فهم كمطر السماء الذى ينقذ من أشرفوا على الهلاك وقد أصابهم الجذب، فيكونون ملاذاً للأمهات وقد حملن أيتامهن ولمن لاعائل لهم من العجزة والمحتاجين، فيجدون عندهم الخير الكثير.

ثم يصفهم الكميّ بالعدل فى الفصل بين الناس، وبأنهم حاذقون فى مواجهة المشكلات، ويعرفون لكل أمر خطره، ولكل نازلة المنجاة منها، فهم أهل رجاحة العقل والفطنة.

ثم يصفهم بالعلم الربانى المتزايد، وهذا اعتقاد الشيعة فى أن العلم يوهب تماماً كما توهب النبوة، وليس أولى بهذا العلم والفقہ من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الوحي.

ثم يقارن الكميّ بين سياسة الهاشميين وسياسة بنى أمية، وفى هذه المقارنة يقرر الكميّ عدل الهاشميين، «بنفى الجور والظلم عنهم، بينما يصم بنى أمية بأنهم يملكون ويدخرون، وكأن الرعية غنم لهم، يجزون صوفها ويشربون ألبانها، ويأكلون لحومها، وفى الوقت نفسه لا يرحمون حتى صغارها من قهرهم، وزجرهم، فهم الظلمة الغاشمون، أما بنو هاشم فهم يبتغون الرحمة والعدل بين الناس، وقد استقاموا على جادة الدين، بينما حاد بنو أمية عنه، وهم مثقلون بالآثام»^(١).

(١) اتجاهات الشعر فى العصر الأموى لأستاذنا الدكتور صلاح الدين الهادى ص ١١٧

«ولا ينسى الكميت أن يرثى برثائه الشجاعة، والطهر، ونبع الخير، وأن يندد بأعدائه، الذين أعانوا على قتله، بتدبير مؤامرة اغتياله فيرميهم بالجرأة على الدين، لأن في قتل الإمام على هدم لعرش الأمة الإسلامية، ويصممهم بالظلم لفتكهم بالراعى العادل، الذى تهلك بهلاكه الرعية»^(١).

بعد هذه الوقفة السريعة مع بعض هاشميات الكميت، يبقى سؤال هام، هل كان الكميت شاعراً سياسياً أم كان شاعراً دينياً؟

وبتعبير آخر، هل كانت الهاشميات شعراً سياسياً أم شعراً دينياً؟ ربما أجمع بعض النقاد ودارسى أدب ذلك العصر على أنه شعر سياسى، لمطالبة هؤلاء الشعراء بالخلافة لشيعتهم وهى منصب سياسى، لكننا نرى أن ننظر أولاً إلى دوافع المطالبة، أهى سياسية أم دينية؟

بمعنى هل كان الكميت ينتمى للحزب الشيعى ويناصره لأنه حزب من أقوى الأحزاب الموجودة، وربما آل إليه الحكم فى وقت ما، فىكون الكميت مسارعاً إلى النصرة والمؤازرة، ويكون له بذلك قدره فى الدولة الجديدة إن قامت؟

لو كان الأمر كذلك فلماذا لم يلجأ الكميت إلى بنى أمية فيمدحهم، ويؤازرهم ويزود عنهم أعداءهم، وهم أصحاب السلطة الحاكمة الموجودة بالقوة والفعل؟

يجيب الكميت نفسه على هذا السؤال حينما قدم له أبو جعفر محمد بن على بن الحسين ألف دينار وكسوة جائزة على أشعاره فى آل البيت، فقال الكيمت: « والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه (يعنى بنى أمية أصحاب السلطان والمال)، ولكننى

(١) السابق نفسه ص ١٠٨

أحببتكم للآخرة، وأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركتها، وأما المال فلا أقبله،
فرده، وقبل الثياب»^(١).

وقوله أيضاً لعبد الله بن الحسن بن على، وقد أجازته على شعره فى آل البيت بضبيعة
قيمتها أربعة آلاف دينار، وسلمه صكها: «بأبى أنت وأمى، إنى كنت أقول الشعر فى غيركم
أريد بذلك المال والدنيا، ولا والله ماقلت فيكم إلا لله، وماكنت لأخذ على شىء جعلته لله
مالاً ولا ثمناً»^(٢).

القضية إذن قضية دين، وليست سياسة، فالخلافة خلافة النبى صلى الله عليه وسلم، وهو
صاحب لواء الدين، وليست خلافة ملك أو سلطان، تؤول إلى من يحسن الوصول إليها عن
أى طريق، أياً كانت هويته.

كذلك لم يكن فصل الدين عن الدولة أمراً وارداً فى ذلك الحين، وإنما ذلك الفصل من
مبتدعات عصرنا الحالى، وكان الواجب على النقاد أن يضعوا المصطلحات بدقة، فإن لم
تيسر لهم تلك الدقة، فليسموا القضايا بأسمائها القديمة، ولا حرج فى ذلك.

شعر الكميت إذن شعر دينى، وإذا كان منهجه يشبه منهج الشعر السياسى الذى ظهر فى
العصور التالية له، فتشابه المناهج لا يعنى اتفاق الهوية.

هو شعر دينى جعل السياسة وسيلة من وسائل الأداء، ونسبة الأمور إلى غاياتها لاشك
أفضل من نسبتها إلى وسائلها.

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٩٢ ط. دار الشعب

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٥ نقلاً عن اتجاهات الشعر فى العصر الأموى للدكتور صلاح الدين الهادى ص

قُدر للهاشميات أن تكتب، وقدر لها أن تصل إلى قصر بنى أمية، ولكن كيف وصلت؟
مما لا شك فيه أن الكميت كان حريصاً على ألا تصل هذه القصائد إلى القصر، فهي لم
تكتب للقصر، وإنما كتبت للعامة الذين أغرقهم بنو أمية في الظلم والجور.

في وصول الهاشميات إلى قصر بنى أمية رواية يرويها أبو الفرج الأصفهاني، في كتابه
الأغاني، رأينا أن نورد هنا نصها^(١):

ان حكيم بن عياش الأعور الكلبى^(٢) ولعاً بهجاء مضر، فكانت شعراء مضر تهجوه
ويجيئهم، وكان الكميت يقول: هو والله أشعر منكم، قالوا: فأجب الرجل، قال: إن خالد
بن عبد الله القسرى^(٣) محسن إلى فلا أقدر أن أرد عليه، قالوا: فاسمع بأذنك ما يقول في
بنات عمك وبنات خالك، وأنشدوه ذلك، فحمى الكميت لعشيرته، فقال قصيدته المذهبة
(ألا حييت عنا يامدينا) فأفحش فيها، وبلغ خالدأ خبرها، فقال: لا أبالي، ما لم يجر لعشيرتى
ذكر، فأنشدوه قوله:

ومن عجب على لعمراً	غذتك وغيرها تبأ يمينا ^(٤)
تجاوزت المياه بلا دليل	ولا علم تعمسف مخطئينا
فإنك والتحول من معد	كهيلة قبلنا والخالينا
تخطت خيرهم حلباً ومسا	إلى المولى المغادر هاربينا
كعنز السوء تنطح عالفياها	وترضيها عصى الذابحينا

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٧٤

(٢) كان شاعراً منقطعاً إلى بنى أمية في دمشق

(٣) خالد بن عبد الله القسرى: كان أميراً على العراق

(٤) في البيت تعريض بأم خالد، وكانت نصرانية

فبلغ ذلك خالداً، فقال: فعلها والله، لأقتلنه، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب، فروأهن الهاشميات، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك، فاشتراهن جميعاً، فلما أنس بهن استنطقهن، فرأى فصاحة، وأدباً، فاستقرأهن القرآن، فقرأن، واستنشدن الشعر، فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات، فقال: ويلكن! من قائل هذا الشعر؟ قلن: الكميت بن زيد الأسدي، قال: وفي أي بلد هو؟ قلن: في العراق، ثم بالكوفة، فكتب إلى خالد وهو عامله على العراق: ابعث إليّ برأس الكميت بن زيد، فبعث خالد إلى الكميت في الليل، فأخذه وأودعه السجن، ولما كان من الغد أقرأ من حضر من مضر كتاب هشام، واعتذر إليهم من قتله، وأذنهم في إنفاذ الأمر فيه في غد، وقال لأبان بن الوليد البجلي وكان صديقاً للكميت: أنظر ماوردني في صديقك، عز على والله به، ثم قام أبان، وكان عاملاً على واسط، فبعث إلى الكميت فأنذره، وكتب إليه: قد بلغني على ماحدث إليه، وهو القتل إلا أن يدفع الله عز وجل، وأرى لك أن تبعث إليّ حبي - يعني زوجة الكميت، وهي بنت نكيف بن عبد الواحد، وهي ممن يتشيع أيضاً - فإذا دخلت إليك تنقبت بنقابها ولبست ثيابها وخرجت، فإني أرجو ألا يؤبه لك، فأرسل الكميت إلى أبي وضاح حبیب بن بديل، وإلى فتیان من بنی عمه، من مالك بن سعيد، فدخل عليه حبیب فأخبره الخبر، وشاوره فيه، فسد رأيهم، ثم بعث لي حبي، امرأته فقص عليها القصة، وقال لها: أي ابنة عم، إن الوالي لا يقدم عليك ولا يسلمك قومك، ولو خفته عليك لما عرضتك له.

فألْبسته ثيابها وإزارها وخمرته^(١)، وقالت له: أقبل وأدبر، ففعل، فقالت: ما أنكر منك شيئاً إلا يبساً في كتفك فاخرج على اسم الله، وأخرجت معه جارية لها فخرج، وعلى باب

(١) خمرته: ألْبسته الخمار

السجن أبو الوضاح، ومعه فتیان من بنی أسد، فلم يؤبه له، ومشى والفتیان بین یدیه، إلى سكة شبيب بناحية الكناسة، فمر بمجلس من مجالس بن ثمیم فقال بعضهم: رجل ورب الكعبة، وأمر غلامه فاتبعه، فصاح به أبو الوضاح: يا كذا وكذا لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم، وأوماً إليه بنعله فولى العبد مدبراً.

وأدخله أبو الوضاح منزله، ولما طال على السجنان الأمر نادى الكميت فلم يجبه، فدخل ليعرف خبره، فصاحت به المرأة: وراءك لا أم لك! فشق ثوبه وخرج صارخاً إلى باب خالد، فأخبره الخبر، فأحضر حُبى فقال لها: يا عدوة الله، احتلت على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه، لأمثلن بك، ولأصنعن ولأفعلن، فاجتمعت بنو أسد إليه وقالوا: ماسبيلك على امرأة منا خدعت، فخافهم فخلى سبيلها.

وسقط غراب على حائط قنعب، فقال الكميت لأبى الوضاح: إني لمأخوذ، وإن حائطك لساقط، فقال: سبحان الله! هذا ما لا يكون إن شاء الله، فقال له: لا بد من أن تحولنى، فخرج به إلى بنى علقمة، وكانوا يتشيعو، فأقام فيهم، ولم يصبح حتى سقط الحائط الذى سقط عليه الغراب.

فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به، فقال: إني أخشى ألا ينفعك جوارى هذا، ولكن استجر بابنه مسلمة بن هشام، فقال: كن أنت السفير بين وبينه، ففعل مسلمة وقال لابن أخيه: قد أتيتك بشرف الدهر واعتقاد الصنيعة لمضر، وأخبره الخبر، فأجاره مسلمة بن هشام. وبلغ ذلك هشاماً فدعا به، ثم قال له: أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره، فقال: كلا لكنى انتظرت سكو غضبه، قال: أحضرني الساعة، فإنه لا جوار لك، فقال مسلمة للكميت: يا أبا المستهل، إن أمير المؤمنين أمرنى بإحضارك، فقال: أتسلمنى يا أبا شاكر، قال: كلا ولكنى

أحتال لك، ثم قال له: إن معاوية بن هشام مات قريباً، وقد جزع عليه جزعاً شديداً، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بشبابك، ويقولوا: هذا استجار بقبر أبينا، ونحن أحق من أجاره.

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر، فقال: ما هذا؟ فقالوا: لعله مستجير بالقبر، فقال: يجار من كان إلا الكميت، فإنه لا جوار له، فقل: إنه الكميت، فقال: يحضر أعنف إحضار، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم به، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر، وهم يقولون: يا أمير المؤمنين، استجار بقبر أبينا وقد مات، ومات حظه من الدنيا، فاجعله هبة لنا، ولا تفضحنا فيمن استجار به، فبكى هشام حتى انتحب.

ثم أقبل على الكميت فقال له: ياكمت، أنت القائل:

والا فقولوا غيرها تتعرفوا نواصيها تردى بنا وهى شرب^(١)

لا والله، ولا أتان من أتن الحجاز وحشية، فحمد الكميت الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: أما بعد فإنى كنت أتهدى فى غمرة وأعوم فى بحر غواية، أحنى على خطيئها واستفزنى وهلهما، فتحيرت فى الضلالة، وتسكمت فى الجهالة، مهرعاً عن الحق، جائراً عن القصد، أقول الباطل ضلالاً، وأفوه بالبهتان وبالأ، وهذا مقام العائد مبصر الهدى، ورافض العمى، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة، واصفح عني الذلة واعف عن الجريمة، ثم

(١) شرب: ضوامر

قال:

كم قال قائلكم لعا ^(١)	لك عند عشرته لعائر
وغفرتهم لذوى الذنوب	ب من الأكابر والأصاغر
أبنى أمية إنكم	أهل الوسائل والأوامر
ثقتى لكل ملامة	وعشیرتنى دون العشائر
أنتم معادن للخلا	فة كابرأ من بعد كابر
بالتسعة المتتابعين	من خلائفاً وبخير عاشر ^(٢)
والى القيامة لانزرا	ل لشافع منك وواتر

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته، فقال: إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ومناط المنتجعين بحبله، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين، فقال له: ويلك ياكمييت، من زين لك الغواية ودلاًك فى العماية؟ قال: الذى أخرج أبانا من الجنة، وأنساه العهد فلم يجد له عزماً، فقال: إيه أنت القائل:

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ويحاطباً فى غير حبلك تحطب

فقال: بل أنا القائل:

إلى آل بيت أبى مالك مناخ هو الأرحب الأسهل

(١) لعا: كلمة يدعى بها للعائر

(٢) التسعة هم معاوية بن أبى سفيان ويزيد الأول ومعاوية الثانى ومروان الأول، وعبد الملك بن مروان، والوليد الأول، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد الثانى، والعاشر هو هشام بن عبد الملك

تمت بأرحامنا الداخـلا
ببيرة والنضر والمالكـ
ويابنى خزيمة بدر السما
وجدنا قريشاً قريش البطاح
ت من حيث لا ينكر المدخل
من رهط هم الأنبل الأنبل
ء والشمس مفتاح ماتامل
على مابنى الأول الأول
وحيص^(١) من الفتق مارُعبلوا^(٢)
قال له: وأنت القائل:

لا كعبد المليك أو كوليـد
من يمت لا يمت فقيداً ومن يحـ
أو سليمان بعد أو كهشام
سيى فلا ذو إل^(٣) ولا ذو ذمام
ويلك ياكـميت أجعلتنا بمن لا يرقب فى مؤمن إلا ولاذمة، فقال: بل أنا القائل ياأمير
المؤمنين:

فالآن صرت إلى أميـ
والآن صرت بهـبا المصـيـ
ياابن العقائل للعقا
من عـبد شمس والأكا
ة والأمور إلى المصاير
ب كمهتد بالأس حائر
ثل والجحاجة الأخاير
بر من أمية فالأكابر

(١) حيصى: خيط

(٢) رعبلوا: مزقوا

(٣) إل: عهد

ف برغم ذى حسد وواغر	إن الخلافــــــــــــة والإلا
سد إليك بالرفد الموافر	دلفاً من الشرف التليـ
ح وحل غيرك بالظواهر	فحللت ممتلج البطا

فقال له: إيه! فأنت القائل:

فقل لبني أمية حيث حلوا	وإن خفت المهند والقطيعة ^(١)
أجاع الله من أشبعتموه	وأشبع من بجوركم ^٢ أضيعة
بمرضئ السياسة هاشمي	يكون حياً لأمته ربيعة

فقال: لا تثريب يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تمحو عني قولي الكاذب، قال بماذا؟ قال بقولي الصادق:

أورثته الحصان أم هشام	حسباً ثاقباً ووجهاً نظيراً
وتعاطى به ابن عائشة البد	رفأ مسمى له رقيباً نظيراً
وكسسه أبو الخلائف مروا	ن سنأ المكارم المائثورا
لم تجهم له البطاح ولكن	وجدتهاله مماراً ودوداً

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال: هكذا فليكن الشعر، يقولها لسالم بن عبد الله

(١) القطيع: السوط المنقطع طرفه

بن عمر، وكان إلى جانبه، ثم قال: قد رضيت عنك يا كميت، فقبل يده، وقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تزيد في تشريفي ولا تجعل لخالد على إمارة، قال: قد فعلت، فكتب له بذلك، وأمر له بأربعين ألف درهم، وثلاثين ثوباً هشامية، وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ففعل ذلك» .

قدر للكميت أن ينجو هذه المرة، ولعله قال ما قال مدحاً في بنى أمية وهو ينظر إلى قوله تعالى «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»^(١).

ولسنا في حاجة إلى الدفاع عن الكميت وإلباس مدائح له لنبي أمية ثوب الهجاء، فقد استطاع الكميت بحدة ذكائه وسرعة بديهته أن يحيك لها ذلك الثوب، فكفانا بذلك تكلفة والتماسه خلف حجب الظن.

ولننظر معاً إلى قوله:

وإلى القيامة لانزال
لشافع منكم وواتر^(٢)

فهذا البيت وإن كان يرضى هشاماً فإنه في الوقت نفسه يؤلب عليه الأحزاب المعادية المتربصة له، والتي تنتظر موت كل خليفة أموي لتطالب بالخلافة لشيعتها، البيت إذن صرخة يطلقها الكميت من خلف قهقهة هشام طرباً له.

ولننظر إلى السخرية اللاذعة التي قصد إليها الكميت من خلال بيت رقيق فيقول:

(١) سورة النحل آية ١٠

(٢) الضمير المستتر يعود على الخلافة

بهم صلح الناس بعد الفساد وحيص من الفتق مارعبلوا

فهل ساد الفساد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فجاءت بنو أمية لتصليح هذا الفساد، وتجمع شمل الأمة بعد تفرقها وهم أول من فرقها وقطع سبل جمعها؟!!

ومن النقاد المعاصرين للكميت من رأى في قوله:

اليوم صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

أنه إنما أراد: اليوم صررت إلي بنو أمية والأمور إلى مصايرها أي بنو هاشم^(١). وهذا التأويل من عصر الشاعر يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا يفهمون شاعرهم حق الفهم ولا يشكون في نزاهته ويقدرّون محنته التي استنطقته بهذا الشعر.

كما أننا نلاحظ أن الكميت لم يصف دين بنو أمية ولم يتعرض له على الإطلاق، فلم يصفهم بالتقوى، والورع، إنما اكتفى بوصفهم بعلو النسب ورفعة الحسب، ونضارة الوجوه والكرم، وذلك ما كان يمدح به عرب الجاهلية.

ليس غريباً إذن أن يستمر الكميت على تشيعه لآخر لحظة في حياته.

خرجت الجعفرية^(٢) على خالد بن عبد الله القسري، وهو يخطب على المنبر، وهو لا يعلم بهم، فخرجوا في البيانيين^(٣) ينادون: لبيك جعفر! لبيك جعفر! وعرف خالد

(١) أنظر الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٨٥

(٢) الجعفرية: القائلون بإمامة جعفر بعد أبيه محمد بن علي الباقر

(٣) البيانيين: نسبة إلى بيان بن سمعان التميمي، وهم فرقة من الشيعة

خبرهم، وهو يخطب على المنبر، فدهش فلم يعلم مايقول فزعاً، فقال: أطعموني ماء، ثم خرج الناس إليهم فأخذوا، فجعل يجيء بهم إلى المسجد، ويؤخذ طن قصب فيطلى بالنفط، ويقال للرجل احتضنه، ويضرب حتى يفعل، ثم يحرق، فحرقهم جميعاً.

فلما قدم يوسف بن عمر دخل عليه الكميت، وقد مدحه بعد قتله خالد بن عبد الله القسري، فأنشده قوله فيه:

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن كمن حصنه فيه الرتاج المضيب^(١)
وماخالد يستطعم الماء فاغراً بعديك والداعى إلى الموت ينعب

وكان الجند قياماً على رأس يوسف بن عمر، وهم يمانية، فتعصبوا لخالد، فوضعوا ذباب سيوفهم في بطن الكميت فوجؤوه بها وقالوا: أتنشد الأمير ولم تستأمره، فلم يزل ينزف حتى مات^(٢).

ومات الكميت شاعر آل البيت، لكن هاشمياته بقيت مشهورة في وجه سيرة بني أمية، وقد ابتلع التاريخ بني أمية، بينما بقيت هاشميات الكميت صورة نابضة بحياة أمة نائرة، وبتاريخ ملئ بصراعات، يؤكد دائماً أن البقاء للموقف، البقاء للكلمة.

(١) الرتاج المضيب: أى الباب العظيم المغلق بالضبة

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٦٢٨٧

شعراء قتلهم شعرهم

المتنبي

أصبحت الكتابة عن المتنبي من أشد الموضوعات صعوبة بالنسبة للمتخصصين فى دراسة الأدب، فضلاً عن غيرهم، ماذلك إلا لازدحام المكتبة العربية والاستشراقية بأعداد لا حصر لها من الكتب التى تناولت الرجل، بدءاً من عصره شخصياً حتى لحظة كتابة هذه السطور.

والواقع أنه لم يلحظ شاعر عربى أو غير عربى، جاهلى أو إسلامى أو أموى أو عباسى أو عثمانى أو من العصر الحديث، بمثل ما حظى به المتنبي من دراسات شملت حياته بكل دقائقها وشعره بكل حركاته وسكناته.

ودراسة حياته من خلال الكتب التى تصوررها أخباراً وأحداثاً، لا يقدم جديداً إلا اختلاف لغة الكاتب عن غيره من الكتاب، أما دراستها من خلال شعره الذى لا تكاد تنتهى جوانب الإبهار فيه، والذى تتسع مدلولات ألفاظه لتحمل على متنها الكثير من المعانى، والذى تحتفظ الصورة فيه بخروجها على سنة التطور التى تجعل من الحديث قديماً ومن القديم مجهولاً، فتظل هى صورة اليوم التى نرى فى خطوطها عروبة مبدعها الذى لم يكن يكتب لعرب يعيشون عصر الدويلات وإنما كان يكتب للنفس العربية والإحساس العربى والنبض العربى الذى لا يتغير بتغير ملامح الخرائط ولا يهتز مع هزات التاريخ العنيفة.

إن دراسة حياته من خلال شعره فرصة كبرى للمكتبة الإنسانية - الخارجة عن الحدود الإقليمية الجنسية واللغوية - لتحوى إلى جانب شعره تصورات النقاد والأدباء عن حياة الرجل الذى أبدع هذا الشعر الذى لم يستطع أكثر من ألف خريف أن يسقطوا من دوحته الخالدة ورقة واحدة.

ومن خلال قصيدته الميمية التى قالها معاتباً سيف الدولة، سوف نتعرف على بعض

تفاصيل حياته وشخصيته وشعره، يقول:

وا حر قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم^(١)
مالي أكرم حباً قد برى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الأمم
إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نققسم^(٢)

بدأ المتنبي قصيدته بإطلاق زفرة حارة تدل على شدة امتلاء قلبه بالحب الذي تحول
دفؤه إلى نار مستعرة أمام محبوب بارد القلب لخلوه من الحب وإعراضه عن عاشقه، ثم هو
- ككل العشاق حين يقابل حبه بلا مبالاة - سقيم الجسم من كثرة السهر وطول الليالي
التي يبيتها يفكر في سبب انصراف حبيه عنه، وفي سبيل يسلكه حتى يصل من خلاله إلى
مرضاة هذا الحبيب.

كل بقدر حبه؛ ومن خلال قوله «ليت» التي تفيد التمني ندرك مدى ثقته من حبه لسيف
الدولة ومدى ثقته من ادعاء هؤلاء الناس الحب، لذلك فهو يتمنى هذه القسمة العادلة التي
سوف يفوز فيها بالنصيب الأكبر إن لم يكن بالحب كله.

عرفنا من الأبيات أن المتنبي يمدح رجلاً يسمى «سيف الدولة» فمن هو سيف الدولة؟
وما علاقة الشاعر به؟ (كان سيف الدولة أمير حلب، وله من العمر إذ ذاك خمسة وثلاثون
عاماً، نموذجاً دقيقاً لأمير من «ألف ليلة وليلة»، وسيما، زهواً، تلتقى فيه كل خصائص
الشيخ البدوي، الطيب منها والردىء، طموحاً، متقلب الأطوار، تتأرجح شخصيته بين

(١) وحر قلبه: يتوجع من شدة حرارة قلبه من الحب، شيم: بارد، سقم: مرض

(٢) غرته: طلعت

القسوة والشهامة، مخلصاً، وفيّاً لرفاقه، شهوانياً، كريماً وأديباً، يزخر بلاطه بالعلماء والشعراء،..... ذلك هو الرجل الذي استسلم له المتنبي عن حب وإعجاب لقيا صدى وقوبلا بترحاب، وخلال أعوام تسعة رافق الشاعر بلاط سيف الدولة فى أنطاكية والرقّة، وميافارقين، وحلب، ورافقه فى الحرب والمباهج فى الأفراح والأحزان، فى الصيد والقنص.

وهناك ازداد شهرة ونما ثراء، وهناك أيضاً أنشد أروع مدائحه التى عرفت بـ «السيفيات» نسبة إلى سيف الدولة^(١)، منها القصيدة التى نحن فى رحابها والتى يمدحه فيها بقوله:

قد زرتة وسيوف الهند مغمدة	وقد نظرت إليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم	وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم ^(٢)
فوت العدو الذى يمتته ظفر	فى طيه أسف فى طيه نعم ^(٣)
قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت	لك المهابة مالا تصنع البهم ^(٤)
ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها	أن لا يواريهم أرض ولا علم ^(٥)
أكلما رمت جيشاً فانشى هرباً	تصرفت بك فى آثاره الهمم ^(٦)
عليك هزمهم فى كل معترك	وما عليك بهم عار إذا انهزموا
أما ترى ظفراً حلواً سوى الظفر	تصافحت فيه بيض الهند واللمم ^(٧)

(١) «مع شعراء الأندلس والمتنبي» إميليو غرسيه غومث تعريب الدكتور الطاهر أحمد مكي ط دار المعارف ص ٢٢

(٢) الشيم: الأخلاق (٣) فوت العدو: تركه، تيممته: قصده، ظفر: نصر

(٤) البهم: الجيوش (٥) يواريهم: يسترهم ، علم: جبل

(٦) رمت: طلبت ، انشى: انسحب (٧) بيض الهند: سيوف تصنع فى الهند، اللمم: شعر خلف الأذن

وفى هذه الأبيات يقدم المتنبي تعليلاً لحبه لسيف الدولة، فقد عرفه فى أوقات السلم حيث كانت السيوف هادئة فى أغمادها، وعرفه فى حالة الحرب حيث كانت السيوف من كثرة إصابتها أجسام جنود الأعداء تبدو وكأنها مصقولة بالدم، فكان فى كلا الحالين أحسن خلق الله وكانت أخلاقه أحسن مافيه.

ونلاحظ شدة الحساسية البلاغية لدى المتنبي، حيث اختار لوقت السلم قوله «زرت» واختار لوقت الحرب قوله «نظرت»، ذلك لأن أوقات السلم تسمح بالزيارة والمجاملة والمسامرة، بينما فى وقت الحب لا يرى إلا الكر والفر ولا يسمع إلا هدير السيوف، فلا تسمح تلك الحالة إلا بالنظرة السريعة.

ثم ينتقل الشاعر إلى الحديث عن واقعة بين سيف الدولة والروم، فر فيها جند الروم ولم يدركهم سيف الدولة، فيحاول المتنبي إقناعه بأن عدم إدراكه لهم يعتبر نصراً، وإن كان يأسف لذلك فإن فى ذلك خير كثير حيث كسب المعركة بفرارهم دون أن يخسر شيئاً من جند أو سلاح، ومهما كانت نتيجة الحرب، فلا يمكن أن يحدث انتصار، أى انتصار، دون خسائر، ومن أجل المزيد من إرضاء الأمير، يعلل له الأمر، فشدة خوف الروم منه ومن قوته وسطوته قد نابت عنه فى المعركة وحقت مهابته مالا تحققه الجيوش الجرارة، كما أنه لا يصح أن يحزن وقد ألزم نفسه شيئاً لا يلزم القادة أنفسهم به، فعلى القادة نزول المارك وخوضها بقوة وحزم، فإذا انسحب العدو، فلا عار على القائد، حيث أنه لم يتخاذل ولم يتوان، ثم يتساءل فى تعجب: ألا ترى النصر نصراً إلا إذا صافحت سيوفك رقاب الأعداء حتى آذانهم؟! وهو بذلك يبالغ فى تقدير سيف الدولة لمعنى النصر الذى لا يكون إلا مخضباً بالدماء.

ويبدو أن هذه المعركة لم تكن نتيجتها فى صالح سيف الدولة وأظن أن فرار الروم كان

بعد أن ضربوه الضربة الأولى، وإلا فلماذا يلح المتنبي على تعزية الأمير لو لم يكن الأمر كذلك، إنه يستخدم كل براعته لتعليل عدم إدراك سيف الدولة لجند الروم، ولو كان فرارهم قبل القتال لما احتاج الأمر من المتنبي إلا قوله:

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهابة مالا تصنع البهم

لكنه أخذ يجمع الممكن والمستحيل من الصور التي أراد من خلالها رفع الروح المعنوية لسيف الدولة وإعادة ثقته بنفسه التي يريد إعدادها للعتاب حيث يقول:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه وورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم (١)

بدأ المتنبي بتقرير صفة العدل لسيف الدولة، بل جعله أعدل الناس، ثم استثنى من عدله مع جميع الناس معاملته وحده، ثم يفوض له الأمر كله بعد أن جعله حكماً وخصماً وموضوع خصام، فهو كل شيء في هذه القضية، وهو بذلك يستشير عدالته لينتصف لمن احتكم إليه من نفسه حتى يبلغ بذلك أقصى درجات العدالة.

ثم يرتفع بنظرة الأمير ونقاء ذهنه عن أن يخلط بين الأمور فلا يميز الخبيث من الطيب حتى وإن تشابها في الشكل، كما يتشابه الشحم والورم مع اختلافهما في الطبيعة.

(١) ناظره: عينه

وبالحكمة يغلف المتنبي عبارة فى منتهى القسوة، يوجهها لسيف الدولة، حيث يقول له:
ماقيمة النظر إذا تساوت الأنوار مع الظلمات عند المرء، وفى هذا تجريح للأمير، ورمى له
بعدم التمييز بين أوضح الأشياء تناقضاً وهى النور والظلمة.

عرفنا أن المتنبي يشكو ظلاماً من سيف الدولة، فما طبيعة هذا الظلم وماظروف وقوعه؟
تتمثل طبيعة هذا الظلم فى إعراض سيف الدولة عن المتنبي وميله إلى غيره من الشعراء
الذين لايساوونه فصاحة وشاعرية.

وقد كان المتنبي مقرباً لدى سيف الدولة أثيراً عنده، مما أثار عليه حفيظة غيره
من الشعراء، وكان على رأسهم الشاعر الأمير «أبو فراس الحمدانى» بن عم سيف
الدولة، الذى كان يحمل أشد الضغائن للمتنبي، ويحسده على مكانته من الأمير،
ويحاول النيل من هذه المكانة، هذا بالإضافة إلى استعلاء المتنبي على الشعراء
وذمهم والسخرية منهم ومن شعرهم بشكل جعله هدفهم جميعاً، يسعون به إلى الأمير
ويحاولون الإيقاع بينهما حتى أفلحوا فى ذلك، وتغير الأمير من ناحيته، وكثر اعتذار
المتنبي له وكثرت وشاية الواشين، فأراد المتنبي أن يحسم هذا الأمر بهذا العتاب
الصريح الذى بدأه مادحاً، خافض الجناح، ولولا وجود أبى فراس الحمدانى وغيره
من الشعراء الحاقدين عليه فى المجلس لاستمر يمدح فى لين، لكنه أحس بشماتتهم
فيه وعز عليه أن يقطر ماء وجهه أمامهم، فراح يفجر بنفسه مستعلياً على الجميع، بما فيهم
الأمير نفسه، ويفخر بشعره بازاً كل الشعراء، يقول:

سيعلم الجمع من ضم مجلسنا	بأننى خير من تسمى به قدم
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى	وأسمعت كلماتى من به صمم

أَنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم^(١)

لاشك أن يأس المتنبي من عودة علاقته بسيف الدولة كما كانت، هو الذي دفعه إلى هذا لفخر الذي تجاوز فيه كل الحدود، حتى أنه لم يقم وزناً لوجود الأمير، ولم يستثنه من هذا لجمع الذي ضمه المجلس.

وفخر المتنبي بنفسه لم يكن وليد هذه القصيدة أو هذا الموقف، وإنما اعتاد الرجل أن يفخر بنفسه كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، يقول في إحدى قصائده التي كتبها في صباه:

إن أكن معجباً فمعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا تربُ الندى وربُ القوافي وسِمامُ العدى وغيظُ الحسود^(٢)

ويقول:

أى محل ارتقى أى عظيم أنقى

وكل ما خلقت الله وما لم يخلق

محتقر فى همى كشجرة فى مفرقى

ويقول:

وفؤادى من الملوك وإن كان لسانى يرى من الشعراء

(١) شواردها: يريد أشعاره الدائمة الصيت، جراها: من أجلها

(٢) تَرب الإنسان: من ولد معه، سِمام: جمع سم

ويقول:

تغرب لامستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً
يقولون لى ماأنت فى كل بلدة ومابتنى؟ ماأبتنى جل أن يسمى

ويقول:

أطع عنك تشبيهى بما وكأنه فما أحد فوقى ولا أحد مثلى
هكذا كان المتنبى فى تقديره لذاته، يراها الأعلى دائماً والأحق بالمجد والشرف ولا يتنازل
عن هذه الرؤية تحت أى ظروف كانت.

والغريب أن تكون هذه شخصية شاعر مداح، يصح أن نقول يرتزق بشعره، فالمفترض أن
المدح - لاسيما إذا كان الغالب على شعر الشاعر - يروض نفسه على الخنوع والخضوع
وإنكار الذات وتفانيها، على الأقل أمام شخصية المدوح، لكن المتنبى ظل يصون نفسه
متمردة متعالية لا تقبل إذلالاً.

كما أن فخر المتنبى بشعره لا يقل عن فخره بنفسه، فقد كان يمزج بين شعره
وذااته مزجاً لا ينفصل ولا ينحل، ففخره بنفسه هو فخره بالمتنبى الشاعر، وفخره
بشعره هو فخره بشعر المتنبى، وديوانه يمتلىء بالأبيات التى تصور شعره بما لم يصور به
شعر شاعر.

يقول:

لأَتَجَسَّرُ الفصحاءُ تشد هاهنا بيتاً ولكنى الهزبرُ الباسلُ^(١)

(١) الهزبر: الأسد

مانال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل

هنا يجعل المتنبي من مدح ممدوحه مدخلاً للفخر بذاته، فالشعراء لا يجرؤن على إنشاء الشعر أمامه وذلك لهيبته وجلاله، أما المتنبي فهو الأسد الذي لا تصده هيبة، كما أن شعره فاق شعر أهل الجاهلية، وهو سحر لم تعرفه بابل وهي بلاد السحر.

ويقول:

إن هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك

عدل الرحمن فيما بيننا فقضى باللفظ لي والحمد لك

فلذا مر بأذني حاسد صار ممن كان حياً فهلك

ومع فخره بشعره يجعل من نفسه نداً لسيف الدولة، بل قسيماً له وقد عدل الله بينهما فقضى الفصاحة والشاعرية للمتنبي وقضى بالحمد والشكر لسيف الدولة، كما قدم نفسه عليه في الترتيب، وهو يحس بأنه شاعر محسود على مجده الشعري ويرى شعره قاتلاً للحساد كمداء، وهو القائل مخاطباً سيف الدولة:

أزل حسد الحساد عني بكتبهم فأت الذي صيرتهم لي حسداً

ويقول:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ ———— كلاًنا رب المعاني الدقاق

وهو هنا يمدح أبا العشائر بأنه شاعر، ولكنه شاعر مختلف، فهو يتعنى بالمجد فعلاً لا قولاً، ويجعل من نفسه خدناً له ومكافئاً، فكلاهما رب المعاني الرقيقة حيث لا يستطيع أحد مجاراة أبي العشائر في مجده وفعاله، كما لا يستطيع أحد أن يجاري المتنبي في مجده

الشعري وقدرته على إبداع الغريب من الشعر.

ويقول:

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته

إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره

قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وهكذا يقول المتنبي بيتاً يرفع به ممدوحه ثم يتبعه بيتاً يرفع به نفسه وشعره حتى يقف إلى جوار ممدوحه كتفاً بكتف، وربما جعل كتفه أعلى.

ويقول:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فسار به من لا سير مشمراً

وغنى به من لا يعنى مفرداً

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما

بشعري أتاك المادحون مردداً

ودع كل صوت غير صوتي فإنتي

أنا الطاهر المحكى والآخر الصدى

هنا يجعل المتنبي من الدهر راوية لشعره ومنشداً، وهو يتيه بشعره حتى على ممدوحه، ويجعل الجائزة حقاً له لامنحة، حيث جاء الشعراء يرددون شعره وفي ذلك مجد للممدوح، كما يرى شعره الأصل بينما الآخرون يقلدون شعره كما يقلد الصدى الصوت.

هكذا كان فخر المتنبي بشعره وتقديره له، لذلك لم يكن غريباً أن يقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

فما أسهل أن يبدع هذه الأشعار الرائعة ثم ينام هادئ البال مطمئن، بينما الناس من نقاد

وشعراء يسهرو الليالى فى تحليلها ودراستها وحفظها أو محاولة إبداع مثلها.

بعد أن أسعف المتنبى ذاته بالفخر بها وشعره بأن ارتفع به فوق كل شعر، كان عليه أن يستعرض قوته كفارس، فقال:

وجاهل مده فى جهله ضحكى	حتى أثنه يد فراسة وفم ^(١)
إذا رأيت نيوب الليث بارزة	فلا تظن أن الليث يبتسم
ومهجة مهجتى من هم صاحبها	أدركتها بجواد ظهره حرم ^(٢)
رجلاه فى الركض رجل واليدان يداً	وفعله ماتريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحفلين به	حتى ضربت وموج الموت يلتطم ^(٣)
الخيل والليل والبيداء تعرفنى	والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفرداً	حتى تعجب منى القور والأكم ^(٤)

ويرى المتنبى أن قوة الفارس تبدو أول ماتبدو فى حلمه، وهو أمام الجاهلين رجل حلیم، لآعن ضعف لكن عن رغبة فى قمع الشر فى نفسه، فإذا ما ازداد الجاهل جهلاً أمام ذلك الحلم، فلا بد من المواجهة العنيفة من خلال اليد القوية المفترسة، والفم الفصيح الهجاء الذى يمكنه أن يقوم مقام جيش بأكمله، وهو يضرب مثلاً لتبسمه فى وجه الجاهل عليه بالأسد الذى يكشر عن أنيابه استعداداً للانقضاض على فريسته، فليس ظهور أنيابه على هذه الحالة تبسماً أو ضحكاً.

(١) فراسة: مفترسة

(٢) المهجة: الروح، جواد ظهره حرم: أى آمن لمن يركبه

(٣) مرهف: يقصد سيفه الحاد، الجحفل: الجيش

(٤) الفلوات: جمع فلاة، وهى الأرض المقفرة، القور: المكان العالى من الأرض، الأكم: الجبل الصغير

ويثبه بجواده القوى الذى يكو ظهره حرماً آمناً لمن يركبه فلا يصيبه مكروه كما لا يصيب
المحتمين بالحرم، فهو يدرك بذلك الجواد روح عدوه الذى كان يسعى لإدراك روحه هو
ويجعلها همه.

ونلاحظ فى هذا البيت «ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجوارد ظهره حرم»
أن المتنبي كان شديد التحكم فى المعنى بحيث وضعه - وهو معنى ملتف مكثف - فى بيت
واحد، وهذه قدرة لا تتأتى إلا لشاعر عملاق كالمتنبي.

ولانتفق مع أستاذنا الدكتور «محمد أبو الأنوار» الذى يرى البيت غامضاً وملثماً بالمعازلة
والغموض، حيث يقول:

«والبيت عندي لا يخلو من غموض ومعازلة والشاعر يريد أن يقول: رب مهجة من هم
صاحبها أن يلحق بى القتل، ولكنى أنا الذى أفتك بهذا العدو وأدركه بجواد من ركه كان
آمناً. كأن ظهره أرض الحرم من لاذبه كان فى مأمنه»^(١).

وهذا ليس شرحاً للبيت، فقد أورد أستاذنا شرح البيت بعد ذلك، ولكنه تبخير للتكثيف
الذى قام به المتنبي فى البيت، أو إعادة كتابة البيت بشكل منشور ليكون أوضح وأيسر
للقارئ.

لكننى أرى أن البيت يخلو من المعازلة والتعقيد والغموض، ومن خلال القراءة الثانية أو
الثالثة على الأكثر - قراءة متأنية، معربة للبيت - يتضح البيت تماماً، فيكون ترتيب البيت فى

(١) فى الشعر العباسى تطوره وقيمه الفنية د. محمد أبو الأنوار ص ٣٥٥ ط. مكتبة الشباب

تصوري كالآتى: «ومهجة أدركتها بجواد ظهره حرم، وكانت مهجتي من هم صاحبها» وهذا الترتيب هو نفسه ترتيب المتنبي، فنحن لم نزد عليه إلا كلمة (كانت)، ولو كتب البيت هكذا:

ومهجة - مهجتي من هم صاحبها- أدركتها بجواد ظهره حرم

لخلا تماماً من التعقيد والغموض والمعاظلة التي يشعر بها البعض، ولانفتح البيت من القراءة الأولى.

ثم اتجه المتنبي إلى ووصف فرسه السريع، الذي تبدو رجلاه من شدة السرعة كأنهما رجل واحد وتبدو اليدان كأنهما يدٌ واحدة، وهو شديد الاستجابة لحركات فارسه، فيفعل ما تريد قدمه وكفه وكأنهما جسد واحد.

وهو بسيفه المرفف يسير بين الجيشين العظيمين، ويظل يضرب والموت يحيط به من كل جانب كأنه الموج العاتى الذى يطغى على الشط ويكسر الصخور، لكنه لا يبالي بكل ذلك لشجاعته، فقد عرفته الخيل فارساً شجاعاً مغواراً، وعرفه الليل جوالاً فيه لا يهاب ظلمته وماتخبيء من شرور للعابرين، وعرفته الصحارى، فقد جابها شرقاً وغرباً وعرف كل شبر فيها وكل حبة رمل من رمالها، وعرفه السيف قتالاً، والرمح طعاناً، والأوراق والأقلام شاعراً فصيحاً لا يدانيه شاعر عربى.

وهو بكل هذه السجايا كان خليقاً أن ينفرد فى الصحراء مع الوحوش لا يهابهم، حتى تعجبت منه مظاهر الطبيعة من مرتفعات ومنخفضات.

لاحظنا أن المتنبي فخر بالحلم والشجاعة والبطش والفروسية والفصاحة، وهذه من السمات التي يعتز بها العربى لكنه لم يفخر بأهم مفاخرهم وهى الكرم وعلو النسب.

فهل كان المتنبي بخيلاً؟ وهل كان ذا نسب وضيع؟

كان المتنبي بخيلاً فعلاً (وقد سئل في ذلك فقال: إن للبخل سيباً، وذلك أنى أذكر وقد وردت في صباه من الكوفة إلى بغداد، فاتخذت خمسة دراهم في جانب منديل، وخرجت أمشى في أسواق بغداد، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة، فرأيت خمسة بطيخات باكورة فاستحسنتها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي، فتقدمت إليه: بكم هذه الخمس بطايطخ؟ فقال: بغير اكتراث- اذهب فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه وقلت: أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد الثمن، فقال: ثمنها عشرة دراهم، فلشدة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة، فوقفت حائراً، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الحان ذاهباً إلى داره فوثب إليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له وقال: يا مولاي هابطيخ باكورة، بإجازتك أحمله إلى منزلك، فقال الشيخ: ويحك! بكم هذا؟ فقال: بخمسة دراهم، فقال: بل بدرهمين، فباع الخمسة بدرهمين، ودعا له وعاد إلى دكانه مسروراً بما فعل، فقلت: يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك، استمت على في هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت، وكنت قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً! فقال: اسكت. هذا يملك مائة ألف دينار... وأنا لا أزال على ماتراه حتى أسمع الناس يقولون: إن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار)^(١).

(وهذه الصفة كانت نتيجة حبه للعلا وطماحه للمجد وحرصه على أن ينهض بتبعااته الثقال التي يعد نفسه لها، خاصة وأن مثل المتنبي في طباعه وخلائقه لا يصادق الضعفاء أو

(١) ديوان المتنبي جـ ١ ص ٦٥، شرح عبد الرحمن البرقوقي ط. دار الكتاب العربي، بيروت

المتوسطين من الناس، بل شأنه أن يكون في تعامله على اختلاف ألوانه ومشاربه مع الكبار من ذوى الشأن والغلب، ومثل هؤلاء يدفعونه في صراعه معهم ومع الحياة إلى التسلح بالاستغناء، والمال عصب في هذا الدور من أطوار الصمود والكفاح، فلم تكن ظروف شخصيته تجعل منه ذلك الشخص الذى يفرغ للنظر فى شئون المحتاجين وذوى العسرة، أو تجعل مسألة الإحسان والعطاء همّاً من همومه، بل ذلك شأن الآخرين الذين ليس هو منهم^(١).

والطريف أنه لما أصاب الثراء فى رحاب سيف الدولة لم يتغير سلوكه فى الإنفاق، على الرغم من أنه ترك كل ما يملك للفقراء، ولكن ماذا ترك لهم؟ يقول:

تركت السرى خلفى لمن قل ماله وأنعلت أفراسى بنعماك عسجداً
فلم يكن يملك غير السير بالليل والترحل فى الصحراء، فلما أصبح غنياً ترك ذلك للفقراء وألبس خيله نعلاً من الذهب.

لذلك لم يفخر المتنبى بالكرم حتى لا يقابل بالسخرية من الجالسين المتربصين المنتظرين منه هفوة، ولم يفخر المتنبى بنسبه حتى لم يكن رفيع النسب متيماً لأحد البيوت الكبيرة، وإنما كان من أسرة فقيرة، وكان أبوه يعمل سقاءً بالكوفة، وقد هجاه أحد معاصريه قائلاً:

أى فضل لشاعر يطلب الفضل —————
ل من الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع فى الكوفة الماء —————
و حيناً يبيع ماء المحيا

(١) فى الشعر العباسى ص ٣٢٠

وهو بذلك يعرض بمهنة أبيه الذي كان يسمى «عيدان السقاء».

ولم يكن لمسألة نسبه هذه تأثير على ذاته المتضخمة ولا على شعره، إنما كان يتجاوز هذه المسألة بنفس الاستعلاء والشموخ فيقول:

لابقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وقال في رثاء جدته يخاطبها:

ولو لم تكوني بنت أكرم والدٍ لكان أباك الضخم كوكب لي أما
لم يكن المتنبي يفخر بنفسه، بل كان يفخر بانتسابه لنفسه، ويتيه بنفسه على أهله ويرى نفسه مدعاة فخر لهم.

بعد أن افتخر المتنبي بنفسه فارساً واستجمع قواه النفسية، كان عليه أن يعلن قرار رحيله عن سيف الدولة، فقال:

يامن يعز علينا أن نفارقهم	وجداننا كل شيء بعدكم عدمٌ
ماكان أخلقنا منكم بتكرمةٍ	لو أن أمركم من أمرنا أمم ^(١)
إن كان سرکم ما قال حاسدنا	فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيتنا لو رعيتم ذاك معرفة	إن المعارف في أهل النهى ذمم ^(٢)

(١) أمم: قريب

(٢) النهى: العقول، ذمم: عهود

وعلى الرغم من أن هذا الرحيل لابد منه فإن الشاعر حزين لاضطراره للرحيل، وعزيز عليه مفارقة صاحبه وأميره وممدوحه الذى أنتجت خصاله الحميدة مع قريحة المتنبي الشعرية، أروع القصائد التى شهدها عالم القصيدة، إذن كل شىء بعد هذا الرحيل عدم فى عين أبى الطيب.

ويعاود المتنبي رفته فى العتاب، فيقول لسيف الدولة: ما كان أحقنا بتكرمكم لنا ورعاية وجودنا لو كان فى قلبكم حب قريب مما فى قلبنا. لكنكم استمعتم إلى قول الحساد بل سررتم به، ومع أن ذلك قد جرحنا إلا أننا لانتالم لجرح أرضاكم، ولكن كان يجب عليكم أن ترعوا حق العلاقة القديمة الحميمة، فالمعارف والعلاقات والعهود والمواثيق عند أصحاب العقول، يجب رعايتها والمحافظة عليها وعدم نقضها.

ويتدفق إحساس المتنبي بذاته فيشتد فى خطاب سيف الدولة، فيقول:

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله مائتاً ون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم^(١)

هنا يتجاوز حد العتاب إلى مهاجمة سيف الدولة، واتهامه بالتربص له والبحث عن سقطاته وتلمسها له، مع أن الدين ينكر ذلك السلوك، كما تنكره الأخلاق الكريمة، ثم يثب المتنبي للدفاع عن ذاته ضد هذه المحاولات، فيقرر أن شرفه أبعد ما يكون عن العيب والنقصان، فهو كالأنجم العالية التى لاتدركها انحناءات

(١) الثريا: الأنجم المجتمعة، الهرم: الكبر والشيخوخة

الشيخوخة وتجاعيد العجز، وهو يربط بشكل فني بين أن تشيخ النجوم وبين التصاق العيب به.

وقوله: «أنا الثريا وذان الشيب والهزم» يجعلنا نشير إلى إكثار المتنبي من استخدام كلمة «أنا» في شعره، وطبعي أن يكثر من استخدامها شاعر نرجسي يحس بعملاقة ذاته أمام الدوات الأخرى، ومن أمثلة ذلك قوله:

أنا ترب الندى ورب القوافي	وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركه الله	به غريب كصالح في ثمود

وقوله:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباء	حث والنجل بعض من نجله
أنا الذي بين الإله به الأقدار	ر والمرء حيثما جمعه

وقوله:

أنا صخرة الواي إذا مازوحت	وإذا نطقت فإنني الجوزاء
---------------------------	-------------------------

وقوله:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي	وأسمعت كلماتي من به صمم
------------------------------	-------------------------

وقوله:

أنا ابن اللقاء، أنا ابن السخاء	أنا ابن الضراب، أنا ابن الطمان
أنا ابن الفيافي، أنا ابن القوافي	أنا ابن السروج أنا ابن الرعان

وقوله:

كذا أنا يادنيا، إذا شئت فاذهبي ويانفس زیدی فی کرائهها قدماً
(إن الإشارة بالأناتتجاوز إذن دائرة الفخر التقليدي لتنزل في سياق الرفض الذي يقوم
أساساً على صلابة الذات)^(١)، ذلك فضلاً عن إكثاره من استخدام «ياء المتكلم» و«تاء
الفاعل» وكذلك استتار «أنا» إذا لم يسمح الوزن أو النح
بعد أن عزف المتنبي سيفونية الرفض وجعل العيب والنقصان بع
لأيام صفائه مع سيف الدولة، فقال:

ليت الغمام الذي عندي صواعقه	يزيلهن إلى ٤
أرى النوى يقتضي كل مرحلة	لا تستقل
لئن تركن ضميراً عن ميامنا	ليحدثن
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا	أن لا تفار

هنا يتمنى الشاعر أن يزيل سيف الدولة الغضب عنه ويوجهه إ
الوشاة الذين يكافؤهم بتقريبهم واصطفائهم، بينما يبعده ويجفوه.

والآن يصرح الشاعر بترحله عن سيف الدولة، وهو يشعر بداية بصعوبة هذا الرحيل
ومشقته حيث تعجز الإبل السريعة القوية عن قطع هذه الرحلة.

(١) «الرفض ومعانيه في الشعر العربي» يوسف الحناشي الدار العربية للكتاب تونس ص ١١٧
(٢) الديم: المطر الهادي (٣) النوى: البعد، تقتضي: تكلفني، الوخادة: الإبل المسرعة، الرسم: التي ترسم
بأخفافها في الأرض
(٤) ضمير: اسم جبل على يمين الراحل من الشام إلى مصر

وأعتقد أن هذه الصعوبة التي يستشعرها أبو الطيب إزاء هذا الرحل أمر غريب عليه، وهو رجل كثير الترحال لا يستقر بأرض حتى يغادرها ولا تقوم بينه وبين أى مكان ألفة أو مودة كالتى تقوم بين الناس والأماكن التى يرتادونها، وفى شعره إشارات إلى هذا المعنى، حيث يقول:

ألفت ترحلى وجعلت أرضى	قنودى والغريرى الجلالا ^(١)
فما حاولت فى أرضى مقاماً	ولا أزممت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تمحنى	أوجهها جنوباً وشمالاً

يقول:

غنى عن الأوطان لا يستخفنى	إلى بلد سافرت عنه إياب
أعز مكان فى الدنى سرج سابح	وخير جليس فى الزمان كتاب ^(٢)

يقول:

وكل امرئ يولى الجميل محبب . وكل مكان ينبت المزطيب

إذن لم يكن للمكان فى نفس المتنبى ذلك الأثر الذى يجعل الرحلة عن مكان ما مسألة صعبة وشاقة تضيق بها الناقة القوية والفرس العظيم.

(١) القنود: جمع قند وهو خشب الرحل، الغريرى: الفحل الكريم، الجلالا: العظيم

(٢) السابح: الفرس السريع الجرى (والأبيات بتصريف اوردتها من غير ترتيب)

وفى رأى أن ترحال المتنبي عن سيف الدولة ترحال نفسى وهذا هو سر صعوبة، فبعد تطواف طويل فى شرق البلاد وغربها، وجد المتنبي سيف الدولة، وجد فيه شخصية العربى الذى يتمناه بعد أن أصبح العرب دميّ فى يد الأعاجم، فكان سيف الدولة رمزاً للإباء العربى الذى كان يرجوه المتنبي ويبحث عنه، لذلك لما وجدته أخلص له المدح واتخذهُ صديقاً وكان معه فى الحروب فارساً والآن هو ينوى الرحيل، والرحيل إلى مصر حيث يحكمها عبد يسمى كافور أسود مثقوب الأذن، فأين هذا العبد من سيف الدولة العربى الأصيل الكريم الشهم الشجاع الوسيم، الذى وجد فيه المتنبي رمزاً للمجد العربى ورفعة المجتمع العربى بعد انتكاسته وانقسامه إلى دويلات ضعيفة هزيلة لا يمكنها أن تصد معتدياً أو تصمد أمام غاز.

إذن كانت المشقة والصعوبة اللتان يستشعرهما المتنبي ثمّلان إحساسه الصادق، كما أن الناقة القوية والفرس العظيم الضخم لا يمكنهما أن يقطعا هذه المسافة التى هى فى وجدان أبى الطيب على الرغم من أنها أقصر من المسافة بين قطرة وأخرى من دمه.

وأمام إحساس المتنبي بمدى خسارته بقيامه بهذه الرحلة - الاضطرابية - كان من حقه أن يهدد الأمير ويضع أمامه صورة واضحة للوضع بعد رحيله، فلا بد أن ينتابهم الندم لأنهم فرطوا فى شاعرهم وفارسهم. وهو يرى أنه لم يرحل عنهم بل هم الذين رحلوا عنه، لأنهم كانوا يستطيعون أن يسترضوه ويعملوا على إبقائه معهم، لكنهم خذلوه واستمعوا إلى قول الوشاه فيه، فبذلك كانوا راضين برحيله حيث كان يمكن منعه ولكنهم تقاعسوا، إذن هم الراحلون وليس هو.

وهذا المعنى يؤكد رأينا فى أن هذا الرحيل رحيل نفسى قبل أى شىء.

ومن المرارة التى تغص بها نفس المتنبي انطلق لسانه بالحكمة فقال:

- | | |
|---|-----------------------------|
| وشر ما يكسب الإنسان ما يصم ^(١) | شر البلاد مكان لا صديق، سبه |
| شهب البزاة سواء فيه والرخم ^(٢) | وشر ما قنصته راحتى قنص |
| تجوز عندك لأعرب ولا عجم ^(٣) | بأى لفظ تقول الشعر زعنفة |
| قد ضمن الدر إلا أنه كلم ^(٤) | هذا عتابك إلا أنه مقلة |

وهذه الحكمة ليست حكمة مجردة، ولكنها وليد شرعى للموقف، ومن خلالها يعلن المتنبي أنه لم يعد له فى هذه البلاد صديق، إذن ذهب سيف الدولة الصديق، وبقي الأمير الممدوح المانع إذا كان عطاؤه على حساب كرامة المتنبي فهو شر العطاء، وشر ما كسبه الشاعر كسب تساوى به مع الأخساء من الشعراء المفتقرين إلى الفصاحة وطلاقة اللسان.

ويكره أبو الطيب أن يتساوى مع هؤلاء تماماً كما يكره أن تتساوى النسور الجارحة القوية الشامخة العالية مع الطيور الحقيرة آكلة الجيف، إن فى هذه المساواة إهانة كبرى للشاعر الذى كان يرى الكون تحت قدميه.

وهذا العتاب الذى وجهه الشاعر لصاحبه، برغم كل مافيه من تجريح وخشونة وإغلاظ أحياناً، إلا أنه صادر عن الحب، وعلى الرغم من أنه كلام، إلا أنه حوى بين جنباته درأ

(١) يصم: يعيب

(٢) قنصته: صادته، شهب البزاة: الصقود ذات الريش الأبيض المختلط بسواد، الرخم: طيور ضعيفة تأكل الجيف

(٣) الزعنفة: اللثيم

(٤) المقة: الحب

خالدة تعيش قوية فى زمن متداع، وتبقى مصقولة جليلة براقعة، رغم الأيام الصدئة.

إدعاؤه النبوة

عرضنا من خلال القصيدة بعض الجوانب من حياة وشخصية وشعر المتنبى، وبقي أن نتطرق إلى مسألة هامة، وهى مسألة إدعائه النبوة، وهذه المسألة قد حيرت الكثير من الباحثين على مر العصور، ففي شخصية الرجل وسلوكه وطبيعة العصر الذى عاشه، فى كل ذلك مايدفع إلى قبول حدوث هذا الإدعاء، وثبوت التهمة عليه. والذى يجعل الحيرة أوسع بحيث تشمل كل من كتب فى هذه المسألة، أن فى شخصيته وسلوكه وطبيعة عصره أيضاً مايدفع إلى رفض هذا الإدعاء.

المسألة إذن مسألة اختلاف فى وجهات نظر الباحثين فى شخصيته وسلوكه وطبيعة عصره. والواقع أن المتنبى عاش حياة كريمة بين العرب المسلمين، وتجول فى البلاد بكل عزة وكرامة ولم يبرح أرضاً إلا بإرادته التى تملئ عليه مايناسب إحساسه بذاته ومكانته، كما حظى شعره بشهرة عريضة، لم يكن عربى فى عصره لايعرفه ولايحفظ شيئاً من شعره، وقد نزل على الولاة والأمراء فمدحهم وأكرموا وأجزلوا له العطاء، وكانوا يحرصون على بقاءه معهم مااستطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

هل كان يمكن أن تكون هذه حياة رجل اتهم بادعاء النبوة؟! هل كان العرب يقبلون بينهم رجلاً يكذب على الله ويرفع نفسه إلى مكانة مساوية لمكانة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ذلك فضلاً عن الترحيب به والعمل على إرضائه واستبقائه، وقد كانت القبائل تلقى بأبنائها فى لظى الحرب من أجل نصرة أى رجل علوى أو حتى يدعى العلوية، وذلك غيرة منهم على آل البيت، فما بالنا بغيرتهم على نبيهم نفسه،

ودينهم الذى أقام لهم هذه الدولة التى يموتون من أجل الحفاظ عليها وإعادتها إلى ماكانت عليه من قوة وسيطرة.

وهل كانوا يحتفون بشعر شاعر تجاوز الزندقة بمراحل أدت إلى إدعاء النبوة؟ ويشرحونه ويحفظونه، بينما أسقط تاريخ الأدب من أشعار الجاهليين مذكروا فيه الأصنام والأوثان، فلم يبق من ذلك إلا النذر اليسير الذى ارتبط بحادثة معينة مع شاعر معين، كالصنم المسمى (بذى الخالص) مثلاً مع امرئ القيس.

إن العرب الذى تركوا أشعاراً كثيرة لوجود أسماء الأصنام فيها، ماكانوا ليحافظوا على شعر رجل ادعى النبوة وحاول محاكاة قرآنهم - كما تنسب ذلك له بعض الروايات - حتى يصل إلى أيدينا محققاً، مشروحاً، حاملاً سيرة صاحبه.

بعيداً عن التطرق إلى تفاصيل هذه المسألة، وذكر كل أو حتى معظم الآراء التى قيلت فيها، نستطيع أن نقول دون مغالاة أن المتنبي لم يدع النبوة. فمن أين إذن لحقه هذا اللقب؟

يجيب على هذا السؤال شيخنا الأستاذ محمود شاكر فيقول:

(وعندنا أن أبا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٣٢٦ واتصل سبيه بيدر بن عمار ولزمه وعلا عنده وأصاب كرامة لم يصب مثلها من قبل، وناوشه الشعراء إذ خافوه على أرزاقهم، وطفقوا يتقصون الرجل ويطلبون له العيوب وأغراهم لذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس لهوهم وانصرافه عن الهزل الذى يكونون فيه، وظنوا به الكثير فأخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به، فلما وقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء فى هذا الشعر وتشبيه نفسه بهم، وماهو فيه من التعفف والتورع، أرادوا له

لقباً يندونه به، فلقبوه (المتنبى) يريدون التشبه بالأنبياء، وأخذوا يذكروه بهذا الاسم ويتداولونه بينهم^(١).

ومن الواضح أن شيخنا قد أجهد ذهنه للوصول إلى هذا التحليل، لكنه التحليل الوحيد المقنع حينما نرفض مسألة إدعاء المتنبى النبوة.

مقتله

قتل المتنبى بسبب الهجاء، على الرغم من أن الهجاء لا يمثل ركناً أساسياً في ديوانه، وإنما اقتصر على التنفيس اليسيرة وبعض المقطعات التي هجا فيها كافور والى مصر وهجا معه شعب مصر الذى جعله والياً وحاكماً.

وكان المتنبى قد قصد مصر ليمدح واليها كافورا، الذى كان عبداً أسود خصياً مثقوب الأذن، لكن المتنبى لم يكن يهتم بهذه الصفات فى أول الأمر، فالرجل يبحث عن ولاية يليها يبدأ بها نواة دولة كبيرة، فلا بأس إذن من مدح كافور العبد، إذا كان ذلك يحقق مأربه، لكن كافور خذله وخيب أمله، فأطلق المتنبى فيه لسانه يهجو، فقال:

أريك الرضى لو أخفت النفس خافياً	وما أنا عن نفسى ولا عنك راضياً
أميناً وإخلافاً وغدراً وخسة	وجبناً، أشخصاً لحت لى أم مخازياً ^(٢)
تظن إبتساماتى رجاءً وغبطة	وما أنا إلا ضاحكاً من رجائياً

(١) «المتنبى» للأستاذ محمود شاكر

(٢) المين: الكذب، المخازى: الأفعال القبيحة المخزية

وتعجبني رجلاك في النعل إننى	رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
وإنك لاتدرى ألونك أسود	من الجهل أم قد صار أبيض صافياً
ويذكرنى تخييط كعبك شقة	ومشيك فى ثوب من الزيت عاريا
ولولا فضول الناس جئتك مادحاً	بما كنت فى سرى به لك هاجياً
فأصبحت مسروراً بما أنا منشد	وإن كان بالإنشاد هجوك عالياً
فإن كنت لاخيراً أفدت فإننى	أفدت بلحظى مشفريك الملاحيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة	ليضحك ربات الحداد البواكيا

هنا يخرج المتنبي كل تقززه من ذلك العبد الذى اضطره طموحه إلى مدحه، فيقول له إن نفسه لم تعد تطيق إظهار الرضا عنك والحب لك، كما يظهر لومه وعتابه لنفسه التى قصدت ذلك الرجل الذى لم يعرف حق المتنبي ولم يرع قدره، ثم يصفه بكل صفات الرجل الدنىء من الكذب وإخلاف الوعد والغدر والخيانة وخسة الأصل والجبن، ثم يتساءل فى تقريرية: أشخص أنت أم مجموعة من الأفعال الدنيئة المخزية، قد تمثلت فى بشر؟! ثم يصون ابتسامته عن أنها ابتسامة رجاء وخضوع وتمنٍ، لكنها ابتسامة الضاحك من رجائه الذى يطلبه عند من لا يكون أهلاً للرجاء، ثم يشير إلى رجليه الغليظتين المشققتين اللتين يظنهما الرائي منتعلتين لشدة سوادهما، ويرى أن الخيوط التى تكون فى الحذاء تشبه الشقوق التى ملأت كعب كافور، وفى هذا إشارة إلى أيام عبوديته التى كان يقضيها حافياً، وهو يرى أن جلده الأسود يشبه ثوبا من الزيت إذا تصبب منه العرق بينما هو عارٍ.

ويقول لولا فضول الناس وتدخلهم فيما لايعنيهم لمدحتك بالهجاء الذى أضمره لك فى

نفسى، فمثلك لا يمكن له أن يفرق بين المدح والهجاء لشدة غبائه، وكثيراً ما كنت تسر
وتظننى أمدحك، بينما أنا أهجوك وأنت لاتفهم الكلام.

وأخيراً يقرر المتنبي أنه لم يستفد خيراً من كنف ذلك العبد، ثم يسخر من نفسه أو يأسى
عليها، فلم تستفد إلا رؤية شفتيه الغليظتين اللتين تشبهان شفتى البعير، فمثله يقصده الناس
من البلاد البعيدة القاصية ليضحك الثكالى بمنظره الغريب فيخرجون من حزنهم وينخرطون
فى الضحك منه.

وقال يهجو كافوراً أيضاً:

فلا تَرَجَّ الخير عند امرئ	مرت يد النخاس فى رأسه ^(١)
وإن عراك الشك فى نفسه	بحاله فانظر إلى جنسه
فقل ما يلوم فى ثوبه	إلا الذى يلوم فى غرسه ^(٢)
من وجد المذهب عن قدره	لم يجد المذهب عن نفسه ^(٣)

يقول المتنبي إنه ليس عند عبد أذله النخاس وعبث به يمينا ويساراً وأوسع ضرباً، ليس
عند هذا العبد الذى عاش تلك الظروف خير، لاسيما إذا أصبح أميراً أو والياً، فيستمر
إحساسه بالنقص ويحاول إذلال الناس.

ثم إنك إذا شككت فيه وفى فعاله، فانظر إلى أصله من العبيد الذين لا يرجى منهم خير

(١) النخاس: تاجر الرقيق

(٢) الغرس: جلدة رقيقة تخرج مع المولود

(٣) القنس: الأصل

ولاكرم ولا مروءة، فالذى ولدته أمه لئيماً وضيعاً لا بد أن يستمر على لؤمه ووضاعته حتى يفارق الحياة، وإذا صار ذا قدر ونسى أيام عبوديته فإنه لا يستطيع أن ينسى أصله.

وقال يهجوهُ أيضاً وهو راحل عن مصر:

المبيد ليس لحر صالح بأخ	لو أنه فى ثياب الحر مولود
لاشتر العبد إلا والعصا معه	إن العبيد لأنجاس مناكيد ^(١)
ماكنت أحسبني أحيا إلى زمن	يسىء بى فيه عبد وهو محمود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا	وأن مثل أبى البيضاء موجود ^(٢)

يقرر المتنبي أن العبد لا يمكن أن يكون أخاً وقريناً لحر صالح حتى لو كان مولوداً فى ثياب الحر، والعبيد أنجاس لا خير فيهم ولا يصلحون إلا بالضرب والإهانة والازدراء، ثم يأسف لأن العمر امتد به حتى الزمن الذى يكون فيه العبد محموداً مشكوراً بينما يسىء للأحرار والأشراف، ولا كان يخطر فى باله حتى على سبيل التوهم أن الناس قد ماتوا جميعاً فلم يبق إلا كافور، ويكنيه بأبى البيضاء استهزاءً به، فمن أين تأييه الطفلة البيضاء وهو بهذا اللون^(٣)، إنه زمن ردىء ذلك الذى ترقى فيه كافور وحده ليحكم الناس.

كان هذا بعضاً مما هجا به المتنبي كافوراً، وقد استطاع أن يرحل عن مصر

(١) مناكيد: جمع منكود وهو الرجل قليل الخير

(٢) أبى البيضاء: يقصد كافوراً وفيه استهزاء به

(٣) نلفت نظر القاريد إلى أننا نشرح شعر المتنبي ولانتبني رأيه فى مسألة العبودية والألوان. «المؤلف»

دون أن يمسه سوء، وكان مقتله بسبب قصيدة هجا بها رجلاً يسمى «ضبة بن زيد»، قال فيها:

ما أنصف القوم ضبة	وأمة الطرطبة ^(١)
وما عليك من القت	لإنما هي ضربة
وما عليك من الغد	وإنما هي سببة ^(٢)
ياقتلاً كل ضيف	غناه ضييح وعلبة ^(٣)
وخوف كل رفيق	أباتك الليل جنبه
كذا خلقت ومن ذا الـ	لدى يغالب ربه
ومن يبالي بـ	إذا تمود كسبه
فسل فؤادك يا ضبـ	ة أين خلف عجبـه ^(٤)
وإن يخنك فـ	لطالما خان صحبه
وكيف ترغب فيه	وقد تبينت رعبه
ما كنت إلا ذباباً	نفتك عنا مذبـه ^(٥)
وإن بعدنا قليلاً	حملت رمحاً وحربة

(١) الطرطبة: اسم أم ضبة، وقد حذفنا بعض الأبيات لكثرة الفحش فيها

(٢) السبة: العار

(٣) غناه: كفاه، الضييح: اللبن الممزوج بالماء، العلبة: قدح من الجلد يشرب به الماد

(٤) العجب: الكبير

(٥) المذبة: ما يطرده الذباب

وقلت لبت بكفى عنان جرداء شطبه^(١)
إن أوحشتك المعالي فإنها دار غربة
أو أنستك المخازي فإنها لك نسبة

يتعرض المتنبي لحادثة مقتل أبي ضبة وقد فر وترك أباه، وهو يستخف به ويسأله مستكراً: ما عليك والقتل ليس إلا ضربة ويموت القتل، والغدر يتناقله الناس ويسبونك به ولن ينالك من سبهم أذى. وهو بذلك يشير إلى خسته وعدم اهتمامه بسمعته وسيرته بين الناس.

ثم يصفه بالبخل الشديد لدرجة قتل الضيف الذى يغنيه أقل القليل من لبن مخلوط بالماء موضوع فى إناء بسيط من الجلد، فهذا الضيف الذى لن يكلفه إلا القليل المتيسر فى كل بيت. يضيق به ضبة حتى يهيم بقتله، ويصفه بالغدر حتى أن أصحابه يخافونه على أنفسهم فلا يطمئنون لنومه إلى جوارهم، ويقرر المتنبي أن هذه الصفات صفات موروثة خلق بها ضبة أيستطيع مخلوق أن يغير خلق الله فيه؟ ويسأله مستكراً: من الذى يهتم بالذم إذا كان معتاداً لهذا الذم لا يستطيع أن يفعل شيئاً يغير سيرته بين الناس، ويقول له: سل قلبك أين ترك الكبر والغرور وإدعاء الشجاعة فى هذه الواقعة حتى ترك أباه للأعداء يقتلونه، فإن يخنك هذا القلب ويجبن فلطالما فعلها وخان صاحبه، ويتساءل أيضاً فى استنكار: كيف ترغب فى هذا القلب الجبان وقد عرفت مدى رعبه عند المواقف الجادة التى تحتاج إلى حسم.

(١) العنان. سير اللجام، الجرداء من الخيل: قصيرة الشعر، الشطبة: الطويلة

وضبة على جنبه هذا لايزيد على كونه ذبابة نفته عن الرجال المذبة التي تنفى الذباب، بيد أنه إذا كان آمناً من أعدائه حمل الرمح والحربة وادعى الشجاعة وتمنى أن يكون بكفه عنان فرس عظيم طويل قوي سريع.

وأخيراً يقول له لا تشق إلى المعالي فإنها بالنسبة لمثلك أرض غريبة لم تطأها قدماك قبلاً، وإذا آنستك الأفعال الدنيئة فلا عجب في ذلك فإنها لك تنتسب.

وفي القصيدة أبيات كثيرة يتعرض فيها المتنبي لأم ضبة ويرميها بأفحش التهم ولم نستطع روايتها لما فيها من الألفاظ الخارجة والصور المكشوفة.

وكان لأم ضبة أخ يسمى «فاتك بن أبي جهل الأسدي» فلما بلغته القصيدة أخذ الغضب منه كل مأخذ وأضمر السوء لأبي الطيب، وكان أبو الطيب قد مر بأبي نصر محمد الحلبي فأطلعته على حقيقة مامر وماينويه فاتك من الشر ونصحه بأن يصحب معه من يستأنس به في الطريق فلم يزدد إلا شقة وعناداً، وأبى أن يصحب معه أحداً قائلاً: أنا والجراز في عنقي - يقصد سيفه - فما بي حاجة إلى مؤنس. ثم قال: والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأني سرت في خفارة غير سيفي، فحذره أبو النصر كثيراً فما كان منه إلا أن أجاب: أبنجو الطير تخوفني، ومن عبيد العصا تخاف علي؟ والله لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون لخمس، وقد نظروا الماء كبطون الحيات، ماجسر لهم خف ولا ظلف أن يرده، معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين، فقال له أبو النصر: قل إن شاء الله. فقال: هي كلمة مقولة لا ترفع مقضياً ولا تستجلب آتياً.

ثم ركب المتنبي وسار فلقى فاتك في الطريق، فأراد المتنبي أن ينجو بنفسه، فقال له غلامه: ألسن القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فثبت المتنبي حتى قتله فاتك وقتل ابنه محسد وغلामه.

هكذا كانت نهاية الرجل الأسطورة الذى ملأ شعره الدنيا وشغلت نفسه الكريمة الآية
الطموحة رجال عصره ورجال كل عصر.

وهكذا توقف القلب العربى الذى كان ممتلئاً حباً للعرب وغيره عليهم بينما بقى شعره
العربى حياً نابضاً، فكان خير ماوصل إلينا من عصر الدويلات.



شعراء قتلهم شعرهم

أبو خَيْلَة

مدح أبو نخيلة الخلفاء، ولم ينقطع لمدح خليفة بعينه، وإنما مدح كل من آلت إليه الخلافة، فهو إذن شاعر المنصب لا شاعر الشخصية.

ويكون أمراً طبيعياً أن نتوقع أن يمدح أبو نخيلة بنى أمية حينما كان الأمر بيدهم كما نتوقع أن يمدح بنى العباس حينما يؤول إليهم الأمر ولا مانع من إرضائهم والإعتذار إليهم بهجاء بنى أمية.

إذن هو يقصد في مدحه كرسى الخلافة لا الجالس عليه، يؤكد ذلك أنه وفد على هشام بن عبد الملك وهو لا يعرف عن أخلاقه شيئاً، ومعرفة أخلاق الخليفة من حلم أو بطش، وسخاء أو شح، وإكبار للشعراء أو إصغار لهم، أمر لازم لكل من يفد عليهم لاسيما الشعراء الذين يستطيعون من خلال ذلك أن يجعلوا شعرهم مناسباً لمقتضى الحال، كان على أبى نخيلة إذن أن يسأل عن أخلاق هذا الخليفة الذى يرجو المثول بين يديه ويطمع فى عطاياه، فقصد رجلاً من المقربين للخليفة وسأله عن ذلك، فأجابه الرجل بأن هشاماً شديد البأس، وإذا مدح وخلط مدحه بطلب حرم الطالب، وطلب من أبى نخيلة أن يخلص المدح ولا يقرنه بطلب، وضرب له موعداً يدخله فيه على الخليفة، فلما حان الموعد دخلاً معاً، فسمع شاعراً ينشده قصيدة يمدحه ويكثر المسألة ويلحف فيها حتى بدا فى وجه هشام الغضب والكراهة، فاستأذن أبو نخيلة وقال:

لما أتتني بغية كالشهد والعسل الممزوج بعد الوقْد^(١)

يأبردها لمشتف بالبرد رعت من الجمال مسمغد^(٢)

(١) بغية: مطلب ، الوقْد: حر الظمأ

(٢) المسمغد: الطويل القوى

وقلت للعيسى اعتلى وجدى فهى تخذ أبرح التخذى^(١)
 كم قد تعسفت بها من نجد ومجرهد بعد مجرهد^(٢)
 إلى أمير المؤمنين المجدى رب مسعد وسوى معد^(٣)
 فى وجهه بدر بدا بالسعد أنت الهمام القرم عند الجد^(٤)

فلما انتهى من قصيدته نظر إلى وجه هشام فرآه منطلقاً فهمّ أن يسأله فتذكر قول صاحبه فسكت وخرج، وبعد أيام أتته جائزة هشام، فدخل عليه بعد ذلك ومدحه فمنحه هشام ثياباً من ثيابه الخاصة وصار من المقربين إليه.

والغريب أن أبا نخيلة غيّر هذه القصيدة وجعلها فى مدح الخليفة أبى العباس السفاح وهو عباسى وذلك بعد أن زال ملك بنى أمية وحل محله ملك بنى العباس.

لما تغيرت الأمور وأصبحت فى يد العباسيين كان على أبى نخيلة أن يطرق بابهم ويمدحهم، فسكوته عن مدحهم وقد مدح بنى أمية - أو بنى مروان بالتحديد - يعتبر هجاء لهم، وتتحول القضية من مجرد شاعر مداح يقول شعره لكل من يملك القدرة على العطاء إلى قضية ولاء سياسى لبنى أمية، وأبو نخيلة برىء من الثانية كما قلنا.

ولكن كيف يجروّ أبو نخيلة فى الدخول على أبى العباس السفاح وقد عرف انقطاعه لبنى أمية وكثرة مديحهم؟؟ لقد حلّت هذه المشكلة أمام أبى نخيلة بأن صفح أبو العباس

(١) العيسى: الجمال، تخذى: تسرع

(٢) تعسف: تخطب وضل، مجرهد: وعمر

(٣) المجدى: المعطى

(٤) القرم: السيد

عمن هم أعظم جرماً منه، فلما دخل عليه (سلم عليه ودعا له وأثنى عليه واستأذنه في الإنشاد، فقال له: ومن أنت؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين أبو نخيلة، فقال: لحياك الله ولا قرب دارك يانضو السوء! ألسنت القائل في مسلمة بن عبد الملك بالأمس:

أمسلم يامن ساد كل خليفة ويافارس الهيجا وياقمر الأرض

والله لولا أنى قد أمنت نظراءك لما ارتد إليك طرفك حتى أخضبك بدمك، فقال أبو نخيلة:

كنا أناساً نرهب الأملاك إذا ركبوا الأعناق والأوراق
قد ارتجينا زمناً أباك ثم ارتجينا بعده أخاك
ثم ارتجينا بعده إياك وكان ماقلت لمن سواك

زوراً فقد كفر هذا ذاك

فتبسم أبو العباس وقال له: أنت شاعر، وطالب خير، وما زال الناس يمدحون الملوك في دولهم، والتوبة تكفر الخطيئة، والظفر يزيل الحقد، وقد عفونا عنك واستأنفنا الصنيعة لك، وأنت الآن شاعرنا، فاتسم بذلك ليزول عنك ميسم بنى مروان، فقد كفر هذا ذاك كما قلت^(١).

وهكذا نرى أبا نخيلة يدور بمدحه على الخلفاء كدورة الزمن عليهم، وكأن قصائده

(١) الأغاني ج ٢٣ ص ٨١١٩

معلقة على كرسى الخلافة يتناولها الجالس عليه بغض النظر عن شخصه وسلوكه. ويبدو أن أبا نخيلة قد أضناه البحث عن عذر يقدمه للعباس عن مدح بنى مروان وكان العذر هو خوفه منهم خاصة ومن الملوك عامة، ثم هو يعتبر قوله فيهم خطيئة لا يمحوها إلا مدح بنى العباس، ومن مدائحه لبنى العباس والتي يهجو فيها بنى مروان قوله:

حتى إذا ما الأوصياء عسكروا	وقام من تبر النبی جوهر
ومن بنى العباس نبع أصفر	ينميه فرع طيب وعنصر
أقبل في الناس الهوى المشهر	وصباح في الليل نهار أنور ^(١)
أنا الذي لو قيل إنى أشعر	جلى الضباب الرجز المخبر ^(٢)
لما مضت لي أشهر وأشهر	قلت لنفسي تزدهى فتصبر ^(٣)
لا يستخفك ركب يصدر	لا منجد يمضى ولا مغور ^(٤)
وخالفى الأبناء نهى المخسر	أو يسمع الخليفة المطهر
منى لمنى كل جنح أحضر	وإن بالأباء غيث يهمر ^(٥)
والغيث يرجى والديار تنضر	ما كان إلا أن أناها العسكر
حتى زهاها مسجود ومنبر	لم يبق من مروان عين تنظر ^(٦)
لا غائب ولا أنساس حُضر	هيهات أودى المقعم المعقر ^(٧)

(١) المشهر: المعروف (٢) أشعر: أقول الشعر، الرجز: بحر من بحور الشعر وعليه يزن أبو نخيلة شعره
(٣) تردهى: تستخف (٤) يصدر: يرجع، المنجد: الذى يسير فى النجد وهو المكان المرتفع، المغور: الذى يسير فى الغور وهو المكان المنخفض
(٥) الجنح: الناحية (٦) مروان: آخر ملوك بنى أمية (٧) المقعم: المقتول، المعقر: المتخن جراحاً

وأماست الأنبار داراً تعمّر وخربت من الشّام أدور^(١)

أين أبو الورد وابن كوثر وأين مروان وأين الأشقر

ويبدو أن سلوك أبي نخيلة الشعري كان منبوذاً لمعرفة الناس بتاريخه مع بني مروان وقد أنكره اسحاق بن مسلم الذي كان جالساً عند الخليفة أبي العباس بعد أن سمع هذه القصيدة وقال: «هؤلاء كلهم في حر أمك أبا نخيلة، فأنكر الخليفة عليه ذلك، فقال: إني والله يا أمير المؤمنين قد سمعت منه فيكم شراً من هذا في مجالس بني مروان، وماله عهد، ولا هو بوفى ولا كريم، فبان ذلك في وجه أبي العباس، وقال له قولاً ضعيفاً: إن التوبة تغسل الحوبة، والحسنات يذهبن السيئات، وهذا شاعر بني هاشم وقام فدخل وانصرف الناس ولم يعط أبا نخيلة شيئاً»^(٢).

أبو نخيلة إذن شخصية شعرية مهتزة ومهيأة لأن يصيبها من جراء ذلك شر عظيم، ذلك لأنه لا يقدر للأمور عواقبها الصحيحة، فهو لا يعرف مقابلاً للقصيدة إلا العطاء، ولا يتوقع رد الفعل الطبيعي حينما يتجاوز شعره حدود المدح وطلب العطاء إلى المناذاة بخلع ولي عهد وإقرار البيعة لغيره، وهو في ذلك يجازف مجازفة عظيمة ويغامر بحياته في مقابل بعض الدراهم وإن كثرت.

حينما علم أبو نخيلة بأن أبا جعفر المنصور يريد تولية المهدي العهد بدلاً من عيسى بن موسى بن أخيه، وجدها أبو نخيلة فرصة للتقرب من أبي جعفر من خلال قصيدة يؤيد به

(١) أدور: جمع دار

(٢) الأغاني ص ٨١٣٩

رأيه ويشيعه بين الناس ويطالب بخلع عيسى بن موسى وبالبيعة للمهدي، فقال:

إلى أمير المؤمنين فاعمدى إلى الذى يندى ولا يندى ندى (١)

سيرى إلى بحر الببحار المزبد إلى الذى إن نفدت لم ينفد

أو ثمدت أشراعها لم يثمد (٢)

ليس ولى عهدنا بالأسعد عيسى فزحلقها إلى محمد

من عند عيسى معهداً عن معهد حتى تؤدى من يد إلى يد

فقد رضينا بالسلام الأمزد وقد فرغنا غير أن لم نشهد (٣)

وغير أن المقعد لم يؤكد فلو سمعنا قولك امدد أمدد

كانت لنا كدعة الورد الصدى فناد للبيعة جمعاً نحشد

فى يومنا الحاضر هذا أو غد واصنع كما شئت وزده يزد

ورده منك رداء يرتد فهو رداء السابق المقلد

وقد أشاع أبو نخيلة هذه القصيدة حتى (رواها الخدم والخاصة وتناشدها العامة، فبلغت المنصور، فدعا به، وعيسى بن موسى جالس عن يمينه فأنشده إياها وأنصت له حتى سمعها عن آخرها.

(١) يندى: وجود

(٢) ثمدت أشراعها: جف ماؤها

(٣) الأمرد: الصغير الذى لم ينبت له لحية

قال أبو نىخلة: فجعلت أرى فيه السرور ثم قال لعيسى بن موسى: ولئن كان هذا عن رأيك لقد سررت عمك، وبلغت من مرضاته أقصى ما يبلغه الولد البار السار، فقال عيسى: «لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين»^(١).^(٢)

هكذا خلع عيسى بن موسى وعقدت البيعة للمهدى بولاية العهد، وكان على عيسى أن ينتقم من ذلك الشاعر الذى تسببت قصيدته فى ضياع الخلافة التى عاش عمره ينتظرها. وقد اشتد عيسى فى طلب أبى نخيلة حتى فر إلى خراسان، فأرسل خلفه مولى له يسمى قطريا ومعه عدد من الرجال فلحقوه فى طريقه إلى خراسان، فأخذوه قطرى وكتفه وأضجعه وذبحه وسلخ وجهه وألقى جسمه إلى النسر ولم يبرح مكانه حتى لم يبق منه إلا عظامه.

(١) سورة الأنعام آية ٥٦

(٢) الأغانى ص ٨١٤٣

شعراء قتلهم شعرهم

مزاحم بن عمرو

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه»^(١)، خير له من أن يمتلىء شعراً»^(٢)، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن فهم هذا الحديث على أنه ذم للشعر والشعراء، وتحذير للناس من قول الشعر، فهم بجانب للصواب إلى حد بعيد فالنبي صلى الله عليه وسلم كان محباً للشعر يستنشده أصحابه فينشدونه، فيعلق عليه ويستحسنه، وقد كان يحب أن يسمع شعر أمية بن أبي الصلت لما فيه من حكمة ونظرات دينية صائبة على الرغم من أنه لم يدرك الإسلام، كما كان صلى الله عليه وسلم، يتأثر بالشعر المعبر عن مشاعر إنسانية مهذبة وعواطف راقية سامية، فكان كثير الاستماع لشعر الخنساء الذي رثت به أخاها صخرأ، ويستزيدها منه، وليس أدل على إعزاز الرسول للشعر واحتفائه به من وجود حسان بن ثابت المشهور بشاعر الرسول، وقد بنى له الرسول صلى الله عليه وسلم منبراً في المسجد لينشد عليه شعره.

الحديث إذن ينصرف إلى شعر معين، وليس إلى الشعر بعامه، ينصرف إلى الشعر المثير للضغائن والأحقاد، الذي تدور موضوعاته حول النزاعات القبلية أو نهش الأعراض.

ومزاحم بن عمرو رجل كان امتلاء جوفه قيحاً حتى يريه خيراً له من أن يمتلىء شعراً، فقد تسبب شعره في قتله، ثم قتل امرأة كان يهواها وابنتها وزوجها الذي قتله فقتل ثأراً له.

كان مزاحم يهوى امرأة تسمى «حماء»، وكانت زوجة لعبد الله بن عبيد الله وكنيته ابن الدمينه، وكان مزاحم يأتيها ويحدثها مزدرياً زوجها وقومها، غير عابىء بهم، وغير عابىء

(١) يريه: يفشده

(٢) المجازات النبوة للشريف الرضى ص: ٩٠

بسمعة المرأة التي يهواها والتي فضحها في قصيدة مفحشة أدت إلى قتله وقتل المرأة، فقد
اشتهر أمره معها ومنعه زوجها من إتيانها واشتد عليها، فلم يجد مزاحم رداً سوى هذه
القصيدة التي يقول فيها:

يا ابن الدمينه والأخبار يرفعها	وخذ النجائب والمحقوق يخفيها
يا ابن الدمينه إن تغضب لما فعلت	فطال خزيك أو تغضب مواليها
أو تبفضوني فكم من طعنة نفذت	يغذو خلال اختلاج الجوف غاذيها ^(١)
جاهدت فيها لكم.. إني لكم أبداً	أبغى معايكم عمداً فآتيها
فذاك عندي لكم حتى تغيبني	غبراء مظلمة هارٍ نواحيها
أغشى نساء بني تيم إذا هجعت	عنى الميرون ولا أبغى مقاريها ^(٢)
كم كاعب من بني تيم قعدت لها	وعانى حين ذاق النوم حاميتها
كقعدة الأعسر العلفوف منتجياً	مُتينة من متين النبل ينجيها ^(٣)
وشهقة تعترها عند لذتها	وقول ركبتهما قض حين تشيها ^(٤)
علامة كية ما بين عانتها	وبين سبتها لاشل كاويها ^(٥)
وتعدل الأير إن زاغت فتبعه	حين يقيم برفق صدره فيها

(١) يغذو: يسيل دماً
(٢) مقاريها: المقارى جمع مقراة وهى القصعة يقرى فيها الضيف
(٣) الأعسر: الذى يعمل بيساره، العلفوف: الضخم، منتجياً: أى جالس على مكان عالٍ من الأرض، المتينة: تصغير متن وهو الوتر، ينجيها: يشدها
(٤) قض: صوت يحاكي صوت ركبتهما حين تشيها
(٥) سبتها: دبرها

بين الصقوقيين في مستهدف ومد	ذى حرة ذاق طعم الموت صاليها ^(١)
ماذا ترى ابن عبيد الله فى امرأة	ليست بمحصنة غدرأ أجاريها
أيام أنت طريد لاتقاربها	وصادف القوس فى الغرات باريها
نرى عجوز بنى تيسم ملفعة	شمطاً عوارضها ريداً دواهيها ^(٢)
إذ تجعل الدفتس الورهاء عذرتها	قشارة من أديم ثم تغريها ^(٣)
حتى يظل هذان القوم بحسبها	بكرأ وقبل هوى فى الدار هاويها ^(٤)

هذه هى القصيدة التى ملأ بها مزاحم الدنيا، وهى قصيدة لا يكتبها عاشق فى أى حال، وإنما الذى يقبل على كتابة قصيدة كهذه، لا يكون إلا رجلاً زنديقاً أهوج غير بصير بالأمور، ولا يضعها فى مواضعها الصحيحة، لقد جعل من الشعر وهو فن الذوق والجمال والتعبير عن المشاعر الإنسانية الراقية، جعل منه وسيلة رخيصة لتصوير سلوكه المخل تجاه امرأة ساقطة.

(لما بلغ ابن الدمينه شعر مزاحم أتى امرأته، فقال لها: لقد قال فيك هذا الرجل ما قال، وقد بلغك، قالت: والله ما رأى ذلك منى قط، قال: فمن له العلامات؟، قالت: وصفهن له النساء، قال: هيهات والله أن يكون ذلك كذلك، ثم أمسك مدة، وصبر حتى ظن أن مزاحما قد نسى القصة، ثم أعاد عليها القول، وأعادت الحلف أن ذلك وصفه له النساء، فقال لها: والله لئن لم تمكنينى منه لأقتلنك، فعلمت أنه سيفعل ذلك، فبعثت إليه وواعدته ليلاً، وقعد

(١) الصقوق: الصخرة الملساء المرتفعة، الومد: الشديد الحرارة، الحرة: الحر

(٢) عوارضها: جانباً وجهها

(٣) الدفتس: المرأة الرعناء، الورهاء: الحمقاء، تغريها: تلصقها

(٤) الهدان: الأحمق

له ابن الدمينة وصباح له، فجاءها للموعد، فجعل يكلمها وهي مكانها، فلم تكلمه، فقال لها: يا حماء ما هذا الجفاء الليلة؟ فقال له ابن الدمينة بصوت ضعيف: ادخل، فدخل، فأهوى بيده ليضعها عليها، فوضعها على ابن الدمينة، فوثب عليه هو وصاحبه وقد جعل له حصى فى ثوب، فضرب بها كبده حتى قتله، وأخرجه فطرحة ميتاً^(١).

إن موقف ابن الدمينة يؤكد صحة العلامات التى وردت فى القصيدة، وهى علامات لاتعرفها المرأة فى المرأة، ولكن يعرفها الرجل فى وضع خاص، لا يكون إلا بين رجل وامرأة، فحماء إذن امرأة ساقطة، أما موقف ابن الدمينة فلا يخلو من سلبية ومن جبن يدلان على قصور فى تقدير قيمة العرض والشرف، فلا نتخيل أن رجلاً عربياً يسمع شعراً كهذا فى امرأته فلا يكون منه إلا أن يستجوبها ثم يصبر مدة حتى ينسى غريمه القصبة، إن الفطرة السليمة تبادر بهذا السؤال: كيف كان حاله خلال هذه المدة التى صبرها؟ وما كانت حاجته إليها؟ ألم يكن الأجدر به أن يخرج على مزاحم شاهراً سيف، فيقتله ويشار لعرضه المنتهك وكرامته الملوثة؟، إن الطريق التى اختارها لقتل غريمه لاتكون إلا من سارق أو قاطع طريق، أما الثأر للعرض فلا يكون إلا كما قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وأى ضاحك هذا الذى اصطفاه لمساعدته فى مهمته العظمى؟، لا يمكن أن نتصور أن هذا الصاحب كان موجوداً بالصدفة، وإنما استدعاه ابن الدمينة ليكون محمساً ومشجعاً

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٦٣٧٣ وما بعدها

ومعينا إذا لزم الأمر، وقد لزم الأمر فعلاً، فلم يقم ابن الدمينه وحده بقتل مزاحم، وإنما وثب عليه هو وصاحبه.

ولعل ابن الدمينه قد أدرك حرج موقفه، وأدرك أن العرب لائموه لامحالة فقد استتر فيما لا يصح الاستتار فيه، واستخفى حيث لا يجب الاستخفاء، لذلك نراه يحاول إسعاف سمعته بقصيدة يهجو فيها سلول - قبيلة مزاحم - ويعرض بنسائهم، يقول ابن الدمينه:

قالوا هجتك سلول اللؤم مخفية	فاليوم أمجو سلولاً لاخافيهـ
قالوا هجاك سلولى فقلت لهم	قد أنصف الصخرة الصماء راميهـ
رجالهم شر من يمشى ونسوتهم	شر البرية واست ذل حاميهـ
يحككن بالصخر استاها بها نقب	كما يحك نقاب الجرب طاليها ^(١)

وقال أيضاً واصفاً دخول مزاحم عليه:

لك الخير إن واعدت حماء فالقها	نهاراً ولا تدلج إذا الليل أظلمـ
فإنك لا تدري أبيضاء طفلة	تعانق أم ليشاً من القوم قشعما ^(٢)
فلما سرى عن ساعدى ولحيتى	وأدرك أنى لست حماء جمجما ^(٣)

وحان دور حماء، وقد وضع ابن الدمينه على وجهها وسادة من قطيفة وجلس عليها حتى قتلها، فلما ماتت قال:

(١) النقب: الجرب

(٢) القشعم: المعجوز

(٣) جمجم الرجل: أى لم يستطع الكلام

إذا قعدت على عرين جارية فوق القطيفة فادعوا لى بحفاه

وبينما هو فى حالة هستيرية جمعت بين ألم الخيانة ولذة الانتقام فإذا بطفلة له من حماء
تبكى، فضرب بها الأرض فقتلها ثم قال: لاتخذن من كلب سوء جرواً.

ولم يكن للأمر أن ينتهى بعد كل هذا، فالقبيلتان - سلول وخشم - قريبتا العهد
بالجاهلية، ولا يمكن لإحدهما السكوت على قاتل مادام حياً، ومادام ابن الدمينه حياً فلا بد
لسلول من قتله.

كانت والدته مزاحم من خشم - قوم ابن الدمينه - ولكن المقتول ابنها ولا بد من الثأر له
أيا كان قاتله، ولا أظن أن العصبية القبلية كانت تتراجع أو تضعف إلا فى موقف كهذا،
وكانت المرأة شاعرة، فقال ثرئى ابنها وتحرض مصعباً وجناحاً أخويه:

بأهلى ومالى بل بجل عشيرتى	قتيل بنى تيم بغير سلاح (١)
فهلا قتلتم بالسلاح ابن اختكم	فتظهر فيه للشهور جراح
فلا تطعموا لى الصلح مادمت حية	ومادام حياً مصعب وجناح
ألم تعلموا أن الدوائر بيننا	تدور وأن الطالبين شحاح

وأكثر أم مزاحم من تحريض مصعب على ابن الدمينه، وقالت له: (اقتل ابن الدمينه،
فإنه قتل أخاك وهجا قومك، وذم أختك، وقد كنت أعذرک قبل الآن لأنك كنت صغيراً وقد

(١) فى البيت عيب من عيوب القافية يسمى «الإقواء» وهو اختلاف حركة الحرف الأخير فى البيت عن بقية أبيات القصيدة

كبرت الآن، فلما أكثر عليه خرج من عندها، وبصر بابن الدميثة واقفاً ينشد الناس، فغدا إلى جزار فأخذ شفرته وعدا على ابن الدميثة فجرحه جراحتين، فقليل: إنه مات لوقته، وقيل: بل سلم تلك ومربه مصعب بعد ذلك وهو في سوق العبلاء ينشد، فعلاه بسيفه حتى قتله^(١).

ألم يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه، خير من أن يمتلىء شعراً».

(١) الأغاني ص ٦٣٧٩

شعراء قتلهم شعرهم

طرفة بن العبد

فى الجزيرة العربية كان الشعر طبيعة فى الناس إبداعاً وفهماً وتذوقاً وحفظاً ورواية، ويندر أن يوجد عربى واحد فى هذا العصر لم يكن له شعر، قليل أو كثير، ردىء أو جيد.

ويدخل هذا الكلام مجال التصديق حينما نشبه الشعر فى الجاهلية وفى الجزيرة العربية بالمرح والفكاهة وخفة الظل فى مصر، فأهل مصر يتميزون بقدرتهم على ابتكار الفكاهة وخلق الأجواء المرحية، وهم فى ذلك - لاشك - يتفاوتون، لكن تجمعهم هذه القدرة.

ليس غريباً إذن أن يطالع علينا تاريخ الأدب الجاهلى بشاعر شاب يقتحم علينا العقد الأخير من القرن العشرين، بقصيدة كتبت بماء الذهب فى نسيج من صنع أقباط مصر وعلقت بأستار الكعبة، فكانت واحدة من المعلقات التى تعتبر أنفس ما أبدعه العقل فى تلك الفترة التى سبقت ظهور الإسلام.

هذا الشاعر يسمى «عمرو بن العبد» و«طرفة» لقبه، وعلى الرغم من حداثة سنه - فقد قتل وهو فى السادسة والعشرين - إلا أنه استطاع أن يشمخ بقامته أمام كبار شعراء عصره فتفوق عليهم بحكمة كانت وليدة ظروفه الخاصة التى ملأته مرارة وأسى، فقد مات أبوه وتركه غلاماً صغيراً، وأكل أعمامه ميراثه عن أبيه، فنشأ فقيراً مع حبه الشديد للإنفاق على المتع والملذات حتى ضاع ماله فاضطر إلى أن تمتد يده لمال أقاربه فنبذوه وطردهوه.

ولو لم يحمل التاريخ لنا وصفه بالفقر لعرفنا ذلك من شعره، فله شعر كثير يذم فيه الفقر ويصف حال الفقير، وقد تخلى الناس عنه وضاعت به الدنيا وأصبح يتخبط فى أمور حياته،

وقد نفر منه أصدقاؤه فإن غاب عنهم لم يسألوا عنه ولم يشفقوا عليه، وإن آب لم يفرحوا
برجوعه أو يحفلوا به، يقول:

إذا قل مال المرء قل بهائه	وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لا يدري وإن كان حازماً	أقدامه خير له أم وراؤه
ولم يمشى في وجه من الأرض واسع	من الناس إلا ضاق عنه نضاؤه
فإن غاب لم يشفق عليه صديقه	وإن آب لم يفرح به أصفياؤه
وإن مات لم يفقد ولي ذهابه	وإن عاش لم يسرر صديقاً لقائه
إذا تم عقل المرء تمت أموره	وتمت أياديه وطباب نناؤه
وإن لم يكن عقل تبين نقصه	وإن كان مفضلاً كثيراً عطاؤه
إذا قل مال المرء قل صديقه	ولم يجل في قلب الخليل إخائه (١)
إذا قل مال المرء لم يرض عقله	بنوه ولم يغضب له أولياؤه
وأصبح مردوداً عليه كلامه	وإن كان منطقاً قليلاً خطاؤه (٢)

هذه الأبيات بما تحتوى عليه من مرارة وأسى لا يمكن أن تصدر إلا عن رجل فقير، أراه
الفقر ضيق الأرض والسماء وخيانة الصديق وعدم مبالاة الأحباب بذهابه أو رجوعه، حتى

(١) يجل: يظهر

(٢) منطقاً: بليغاً

أبناءؤه ربما لا يرضون به أباً وأقرباؤه لا يغضبون لمكروه أصابه، وأصبح كلامه مردوداً غير مسموع على الرغم من بلاغته وفطنة قائله.

ويبدو أن الفقر كان الهم الأول الذي يعانيه طرفة، فكان يتمنى أن يكون واحداً من الأغنياء الذين يتمتعون بالمال والولد، يقول:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد^(١)

فأصبحت ذا مالٍ كثير وعادني بنون كرام سادة لمسود^(٢)

(قال أبو عبيدة: فقال عمرو بن مرثد لما سمع قول طرفة: ابعثوا إلى طرفة فليأتني، فأتاه فقال له: أما الولد فالله يعطيكه، وأما المال فلا تبرح حتى تكون أوسطنا مالاً، ثم أمر بنيه وهم سبعة أن يعطوه عشراً عشراً من الأبل، حتى أعطاه بنو عمرو سبعين بعيراً، ثم قال لثلاثة من بني أبنائه أعطوه عشراً عشراً فأعطوه ثلاثين، فبقي الأبناء يفخر أبنائهم الذين أعطوا طرفه على سائر الأبناء الذين لم يعطوه، يقولون: جعلنا جدنا مثل بنيه)^(٣).

ومن شعر طرفة نلاحظ علاقته المتوترة بابن عمه «مالك» الذي كان كبير القوم، والذي كان دائم اللوم على طرفة وسلوكه، بينما يسعى لاسترضائه، حتى يئس منه وعده من الأموات.

(١) قيس بن خالد وعمرو بن مرثد رجلان غنيان من قوم طرفة

(٢) عادني: أتاني

(٣) ديوان طرفة بن العبد تحقيق يوسف الأعلام الشتيمري ص ٣٧

يقول طرفة:

فمالي أراني وابن عمي مالكا	متى أدن منه ينأ عني ويمعد
يلوم وما أدري على ما يلومني	كما لامني في الحى قرط بن أعبد ^(١)
وأيأسني من كل خير طلبته	كأنا وضعنا على رمس ملحد ^(٢)
فلو كان مولاي امرا هو غيره	لفرج كربى أو لأنظرني غدى
ولكن مولاي امرؤ هو خائقي	على الشكر والتسأل أو أنا مفتد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة	على المرء من وقع الحسام المهند ^(٣)

هكذا كان طرفة كثيراً ما يحاول التقرب إلى ابن عمه الذى كان دائماً يقابل اقترابه بالابتعاد، ويبدو أن لوم طرفة لم يكن مقصورا على ابن عمه مالك، وإنما كان لائموا كثيرين منهم قرط بن أعبد الذى ذكره فى قصيده.

وبعد كل محاولات التقرب والمصالحة بين طرفة ومالك، يئأس طرفة ويترك ابن عمه تركاً نهائياً لارجوع فيه، وكأنه قد مات ودفن، ثم يقدم تعليلاً لهذا الاعتقاد، فلو كان ابن عمه رجلاً غير مالك لفرج كربيه وأدى عنه دينه أو على الأقل أنظره إلى وقت قريب يكون فيه قادراً على أداء الدين، لكنه شدد عليه الخناق حتى اضطره إلى مدح الناس وشكرهم وسؤالهم العطايا، ثم يقرر حقيقة تشع مرارة وأسى فظلم ذوى القربى أشد حرقة وأوقع المأ

(١) قرط بن أعبد: رجل من حى طرفة

(٢) رمس ملحد: يعنى القبر

(٣) مضاضة: حرقة، الحسام المهند: السيف المصنوع فى الهند

من السيف الحاد البتار، حيث لا يتوقع الإنسان هذا الظلم فلا يتوقى منه، كما لا يكون جاداً في الانتصار لنفسه، فإذا جد وانتصر فإنه لا يكون سعيداً بهذا الانتصار الذي يقع على أقربائه الذين يحبهم ويتمنى لو بادلوه حباً بحب.

الشعر إذن كان الناي الذي ينفث فيه طرفه زفرات الأسى التي تتوهج في صدره، فتخرج لحوناً مطربة عذبة قوية التأثير.

وكثيراً ما كان شعره يشغله عن رعى إبله مع أخيه معبد الذي كان يلومه على ترك إبله وماله إلى الشعر، وكان يقول له: لم لاتسرح في إبلك كما كنت تفعل، أترى أن شعرك يردّها إن أخذت؟ فقال طرفة: فإنى لا أخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعري يردّها. فتركها فأخذها ناس من مضر فرحل طرفة عن اليمامة وادعى جوار عمرو بن هند ملك الحيرة.

وقد وفد على عمرو بن هند مع خاله الملتمس، (فنادمهما الملك وأكرمهما وبقيا عنده زماناً، ويقولون: إن طرفة كان غلاماً معجباً، تائهاً، فبينما كان يشرب يوماً بين يدي الملك إذ أشرفت عليه أخته فرآها طرفة، فقال فيها بيتين من الشعر، فنظر إليه عمرو نظرة كادت تقتلعه من مجلسه، وكان عمرو لا يتسم ولا يضحك، وكانت العرب تسميه «مضرط الحجارة» لشدته، وكانوا يهابونه هيبة شديدة، فقال الملتمس لطرفة حين قاموا: «يا طرفة إنى أخاف عليك من نظرتك إليك»، فلم يكثر بكلامه ثم جعلهما عمرو بن هند من صحابة أخيه قابوس، وكان يرشحه للملك، وأمرهما بلزومه، وكان قابوس شاباً يعجبه الزهو، وكان يركب يوماً في الصيد، فيركض يتصيد، وهما معه يركضان، حتى يرجعا عشية ولقد لعبا. فيكون قابوس من الغد للشراب، فيقفان في باب سرادقه إلى العشي، وكان قابوس

يوماً على الشراب، فوقفا ببابه النهار كله، ولم يصلأ إليه، فضجر طرفه وهجا عمرأ وأخاه^(١).

لكن الهجاء لم يصل إلى أسمع عمرو بن هند إلا عن طريق رجل يسمى «عبد عمرو بن بشر» الذى هجاه طرفه أيضاً، فاشتد حنقه عليه ووشى به عند عمرو بن هند، وكان مما قاله فى هجاء عبد عمرو قوله:

ولاخير فيه غيرر أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضما^(٢)

كأن السلاح فوق شعبة بانه ترى نفخاً ورد الأسرة أسحما^(٣)

وطرفة فى هذين البيتين ينزع كل الفضائل عن عبد عمرو ولايبقى له إلا غناه ووصفه بالصفات التى يتغزل بها فى النساء، فله خصر ضامر إذا قام تشنى كأنه شجرة البان الرخوة اللينة الناعمة، والسلاح الذى يحمله يكاد يثنيه، وترى له بروزات فى جنبات جسمه وهو فى تشنى لحمه يكون مثيراً.

وكان عبد عمرو بن بشر مع عمرو بن هند فى رحلة صيد، وقد جلسوا لياكلوا صيدهم، وجلس عبد عمرو يقدم الشواء لعمرو فأبصر خصره من تحت القميص الضيق، فقال له عمرو بن هند: يا عبد عمرو، لقد أبصر طرفه حسن كشحك، ثم تمثل حتى قال:

ولاخير فيه غير أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضما

(١) ديوان طرفة تحقيق الأستاذ على الجندى نقلاً عن نصوص من العصر الجاهلى للدكتور جودة أمين ط. الفجر الجديد

(٢) الكشح: الخصر، الأهضم: الضامر

(٣) البانة: واحدة شجر البان اللين، الأسحم: الأسود

فغضب عبد عمرو مما قاله عمرو بن هند وأنف، فقال: لقد قال في الملك أقبح من هذا، قال عمرو وما الذي قال؟ فندم عبد عمرو على الذي سبق منه، وأبى أن يسمعه، فقال عمرو: أسمعني وطرفة آمن، فأسمعه القصيدة التي هجاه فيها^(١). ومنها قوله:

ليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاً حول قببنا تخور^(٢)

من الزمرات أسبل قادمها وضرتها مركنة درور^(٣)

يشاركنا لنا رخلان فيها وتعلوها الكباش فما تنور^(٤)

لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير^(٥)

في هذه الأبيات يرى طرفة عمرو بن هند ملكاً لا يصلح للملك وخير منه نعيجة تخور وإن كانت قليلة الصوف فربما كان لبنها كثيراً يكفي رضيعها وحالبها، وهي لا تنفر من الكباش فقد اعتادت أن يقع عليها الذكور، ثم يذكر قابوساً أخاً عمرو فيصف ملكه بالحمق والبله.

(فسكت عمرو بن هند على ذلك وقر في نفسه، وكره أن يعجل عليه مكان قومه، فأضرب عنه، ثم لم يزل يطلب غرته والاستمكان منه حتى أمن طرفه ولم يخفه على نفسه وظن أنه قد رضى عنه، فقدم هو والمتمس على عمرو بن هند، وكان المتمس قد هجا عمراً متعرضاً لفضله ومعروفه، فكتب لهما إلى عامله على البحرين

(٢) الرغوئ: النعجة المرضع

(١) المصدر السابق ص ٨٦

(٣) الزمرات: القليلات الصوف، الضرة: لحم الضرع، مركنة: لها أركان وجوانب، الدرور: كثيرة در اللبن.

(٤) رخلان: مفردا رخل وهي الأنثى من أولاد الضأن، تنور: تنفر

(٥) قابوس بن هند: أخو عمرو بن هند، نوك: حمق

وهجر، وقال لهما: انطلقا إليه فاقبضا جوائزكما.

فخرجوا فلما هبطا النحو قال الملتمس: يا طرفة إنك غلام حديث السن والملك من قد عرفت حقه وغدره، وكلانا قد هجاه ولست آمنا أن يكون قد أمر فينا بشر، فلهم ننظر ما في كتابنا هذا، فإن يكن أمر خير مضينا به وإن تكن الأخرى لم نهلك أنفسنا، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك، وعدل الملتمس إلى غلام من غلمان الحيرة عبادي، فأعطاه الصحيفة فقرأها فقال: ثكلت الملتمس أمه، فانتزع الصحيفة من الغلام واكتفى بذلك من قوله، واتبع طرفة فلم يلحق به، وألقى الصحيفة في نهر الحير ثم خرج هارباً إلى الشام، ثم سار طرفة حتى قدم على عامل البحرين وهو بهجر فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقراه، فقال: هل تعلم ما أمرت فيك؟ فقال: نعم، أمرت أن تجيزني وتحسن إليّ، فقال لطرفة: إن بيني وبينك خؤولة أنا راع لها، فأهرب من ليلتك قبل أن تصبح ويعلم الناس بمكانك، فإنني قد أمرت بقتلك، فقال له طرفة: اشتدت عليك جائزتي فأحببت أن أهرب وأن أجعل لعمرو على سبيلاً كأنني قد أذنبت ذنباً، والله لا أفعل ذلك أبداً، فلما أصبح أمر بحبسه وتكرم عن قتله، وكتب إلى عمرو بن هند: ابعث إلى عملي غيري فإنني غير قاتل الرجل، فبعث إليه عمرو بن هند رجلاً من بني تغلب واستعمله على البحرين، وكان رجلاً شديداً شجاعاً وأمره بقتل طرفة فقتله^(١).

(١) ديوان طرفة تحقيق يوسف الأعلام الشنتمري ص ٩٩

وقد رثته أخته بقولها:

عددنا له ستا وعشرين حجة فلما توفاهما استوى سيداً ضخماً

فجمعنا به لما رجونا إيا به على خير حالٍ لاوليداً ولا قحماً^(١)

وهكذا قتل طرفة الشاعر العربي الشاب الذي استطاع أن يخلد اسمه بشعره الذي كان
الركن الندى الظليل في حياته، يأوى إليه هرباً من جفاف مشاعر أهله تجاهه، وحلمه الذي
يفر إليه من مرارة واقعه الملىء بالأسى.

(١) القحم: هو الذي يقحم نفسه في الأمور

شعراء قتلهم شعرهم

أعشى همدان

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث، وكنيته «أبو المصباح»، وهمدان جده الأعل ولقب بالأعشى لضعف بصره.

كان الأعشى فقيهاً وقارئاً للقرآن الكريم، ثم تحول إلى الشعر بعد أن رأى فى منامه أنه دخل بيتاً فيه حنطة وشعير، فقليل له خذ أيهما شئت، فأخذ الشعير، فقص رؤياه على صهره الشعبى وكان فقيهاً أيضاً، فقال له: إن صدقت رؤياك تركت القرآن وقلت الشعر، فكان كما قال.

منذ ذلك الحين أصبح الأعشى من شعراء الكوفة الفصحاء، حتى اعتبره الأصمعى من الفحول، وقد عاصر الدولة الأموية، وكان شاعراً مواكباً للأحداث منغمساً فيها، ذا موقف من الدولة وسياستها، فكان لساناً لاذعاً سليطاً عليها، يؤلب أهل الكوفة على الحجاج بن يوسف الثقفى، وذلك عندما خرج ابن الأشعث على الحجاج وحشد معه أهل الكوفة، فلم يبق أحد من وجوههم إلا خرج معه لثقل وطأة الحجاج عليهم، فكان الأعشى على رأس الجيوش فارساً، كما كان شاعراً محمّساً للجنود كمن يقوم على أمر الشئون المعنوية فى الجيوش الحديثة، ولم يسلم الحجاج رغم غلظته ومعجته للدماء من هجاء الأعشى فضلاً عن أن الأعشى كان يمدح ابن الأشعث وهو أعدى أعداء الحجاج وأجراً الخارجين عليه، وهذه وحدها كفيّلة بإثارة حفيظة الحجاج ضد الأعشى وجعله من المطاردين المطلوبة دماؤهم وما أسعد الحجاج بذلك وهو الذى كان يتفاخر بحبه للقتل وإراقة الدماء. ومن هجاء الأعشى للحجاج بن يوسف الثقفى قوله:

لما سمونا للكفور الفتان بالسيد الغطريف^(١) عبد الرحمن

سار بسمع كالقطا من قحطان ومن معد قد أتى ابن عدنان
أمكن ربي من ثقيف همدان يوماً إلى الليل يسلى ما كان
إن ثقيفاً منهم الكذابان كذا بها الماضي وكذاب ثان

وقوله:

يا ابن الأشج^(١) قريع كندة لا أبالي فيك عتياً
أنت الرئيس ابن الرئيس وأنت أعلى الناس كسباً
نبئت الحجاج بن يوسف خسر من زلق^(٢) فتباً
فانهض فديت لعله يجلو بك الرحمن كرباً
وابعث «عطية»^(٣) في الخيول يكبهن عليه كباً

من هاتين المقطوعتين تتضح لنا صورة الأعشى كشاعر هجاء وتكون أكثر جلاءً فهو يهجو الذراع الباطشة للدولة الأموية وهو الحجاج وهو من هو، فكان الأولى - لو كان الأعشى شاعراً مرتزقاً - أن يمدح هذه الشخصية ذات الشأن العظيم في الدولة ويحصل على الأموال والعطايا حيث لم تكن الدولة الأموية بالبخيلة في هذا الشأن، وإنما كانت تصطنع الشعراء وتجندهم لخدمة دعواها، فهي حينما تشتري لسان شاعر معين فهي تشتري قبيلته كلها، فالشاعر ليس شخصاً منعزلاً عن قبيلته، وإنما هو لسان حالها أو المتحدث

(١) الأشج: يقصد عبد الرحمن بن أشعث

(٢) زلق: المكان الذي لا يثبت عليه قدم

(٣) عطية: هو عطية بن عمرو العبدي قائد جيوش عبد الرحمن بن الأشعث

الرسمى باسمها، وقد كان فى إمكان الأعشى أن يفعل ذلك، لكنه - فيما نعتقد - كان شاعراً ذا أيديولوجية وذا موقف متحدد من هذه السياسات لذلك كان يرتزق بشعره بعيداً عن هذه المنطقة، فإذا مادخلها هو شاعر لاتنقصه النزاهة والجرأة وحرية الرأى فيمدح أعداء الحجاج ويهجو الحجاج بما يثير حفيظته، ومن مدائحه فى ابن الأشعث قوله:

كم من أب لك كان يعقد تاجه	بجبين أبـلج مقـول صـنديـد
وإذا سألت المجد أين محله	فالمجد بين محمد ^(١) وسعيد ^(٢)
بين الأشج وبين قيس باذخ	بخ ^(٣) بخ لوالده وللـمولود
ماقصرت بك أن تنال مدى العلا	أخلاق مكرمة وإرث جـدود
قرم إذا سامى القروم ترى له	أعراق مجد طارف ^(٤) وتليد
وإذا دعا لمظيمة حشدت له	همدان تحت لوائه المعهود
يمشون فى حلق الحديد كأنهم	أسد الإباء سمعن زأر أسود
ماإن نرى قيساً يقارب قيسكم	فى المكرمات ولا ترى كسعيد

من الطبيعى إذن أن يسكن الأعشى رأس الحجاج ويقض مضجعه ويؤرقه بعد ذلك الهجاء المقلد الذى جعل أهل العراق يتجراؤون على الحجاج ويخرجون لحربه، وبعد ذلك مدحه للأشعث الذى جمع القوم حوله فأزروه وناصروه وخرجوا معه لقتال

(١) محمد: هو أبو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

(٢) سعيد: هو ابن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وعلى ذلك يكون المجد مقصوداً به عبد الرحمن نفسه لأنه

بين ابنه وأبيه

(٣) بخ: كلمة استعسان ومدح

(٤) الطارف: المستحدث والتليد عكسه

الحجاج.

يروى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغانى» (لما أتى الحجاج بن يوسف الثقفى بأعشى همدان قال: الحمد لله الذى أمكن منك، ألسـت القائل:

لما سمونا للكفور الفـتان الأبيات (١)

أولست القائل:

يا ابن الأشج قريع كندة لأبالي فـيك عـتـبـا

..... الأبيات (٢)

كلا ياعدو الله، بل عبد الرحمن بن الأشعث هو الذى خر من زلق. فثب وحر وانكب، ومالقى ما أحب، ورفع بها صوته وأربد وجهه واهتز منكباه، فلم يبق أحد فى المجلس إلا أهمته نفسه وارتعدت فرائصه، فقال له الأعشى: بل أنا القائل أيها الأمير:

أبى الله إلا أن يتم نوره	ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا
وينزل ذلاً بالمراق وأهله	كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
ومالـبـث الحجاج أن سل سيفه	عليـنا فـولـى جـمعـنا وتـبددا
ومازاحف الحجاج إلا رأيتـه	حساما ملقى للحروب معودا
فكيف رأيت الله فرّق جمعهم	ومزقهم عرض البلاد وشردا

(١ و ٢) ارجع للأبيات فى أول الفصل من هذه الدراسة

بما نكثوا من بيعة بعد بيعة	إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا
وما أحدثوا من بدعة وعظيمة	من القول لم يصعد إلى الله مصعدا
ليهناً أمير المؤمنين ظهوره	على أمة كانوا بغاة وحسدا
وجدنا بنى مروان خير أئمة	وأعظم هذا الخلق حلما وسؤدا
وخير قريش من قريش أرومة	وأكرمهم إلا النبی محمدا
إذا ماتدبرنا عواقب أمرنا	وجدنا أمير المؤمنين المسددا
سيغلب قوماً غالبوا الله جهرة	وإن كایدوه كان أقوى وأكيدا
كذاك يضل الله من كان قلبه	ضعيفا ومن والى النفاق والحددا
تعطف أمير المؤمنين عليهم	فقد تركوا أمر السفاهة والردى
لعلهم أن يحدثوا العام توبة	وتعرف نصحاً منهم وتوددا
لقد شمت يا ابن الأشعث العام مصرنا	فظلوا وما لاقوا من الطير أسعدا
كما شاءم الله النجير وأهله	بجدك من قد كان أشقى وأنكد

فقال من حضر من أهل الشام: فقد أحسن أيها الأمير، فخل سبيله، فقال: أتظنون أنه أراد المدح، لا والله! لكنه قال هذا أسفاً لغلبتكم إياه وأراد به أن يحرض أصحابه، ثم أقبل عليه فقال له: أظننت ياعدو الله أنك تخذعنى بهذا الشعر وتنفلت من يدي حتى تنجوا! أأست القائل ويحك!

وإذا سألت: المجد أين محله
فالمجد بين محمد وسعيد
بين الأغـر وبين قيس باذخ
بخ بخ لوالده وللـمولود
والله لا يبخـبـخ بعدها أبداً. أولست القائل:
وأصابنى قوم وكنـت أصيـبهم
فاليوم أصبر للزمان وأعرف
كذبت والله، ما كنت صبورا ولا عروفاً، ثم قلت بعده:

وإذا تصبـبك من الحوادث نكبة
فأصبر فكل غيابة ستكشف
أما والله لتكون نكبة لا تنكشف غيابتها عنك أبداً، يا حرسى، اضرب عنقه، فضرب عنقه،
فكان أعشى همدان قتيل الحجاج أو قل قتيل شعره.

بعد ما قلناه عن نزاهة الأعشى وموقفه من الدولة الأموية يحق له علينا أن نقف وقفة مع
القصيدة التى مدح بها الحجاج، فليس مما يقبله العقل أن يكون الأعشى مخلصاً على مدحة
للحجاج بعد ذلك التهاجى الذى أدى إلى مقتله، ولعل الأعشى كان قد أعد هذه القصيدة
تحسباً لموقف كهذا، فليس من الطبيعى أن يرتجلها فى مثل هذه الظروف، وليست سرعة
البديهة وحدها كافية لإخراج مثل هذه القصيدة وفيها مافيها من الغمز والهجاء المرتدى
ثياب المدح كما سيتضح عند الوقوف على بعض معانيها، فمثلاً فى قوله:

أبى الله إلا أن يتم نوره
ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا

فى هذا البيت سخرية خفية لا يدركها إلا ذو بصر بالشعر ومعانيه وطرائقه، فالله سبحانه
قد أتم نوره بالإسلام الذى جاء على يد رسوله صلى الله عليه وسلم، وليست البشرية فى
حاجة لبنى أمية الذين اغتصبوا الخلافة وحولوها إلى ملك يتوارثونه، لكى يتم بهم نور الله

فى الأرض؁ كذلك قوله:

وما زاحف الحجاج إلا رأيتـه حساماً ملقى للحروب معودا

فظاهر البيت يصف الحجاج بالشجاعة؁ لكن البيت يعرض به ويصفه بأنه فقط مجرد سيف فى يد الدولة الأموية تطعن به كيف تشاء؁ وقوله «ملقى» فيه مافيه من السخرية؁ فكأن الحجاج شىء حقير يلقى به؁ فإذا جاء بخير فهو للدولة وإن هلك لم تخسر الدولة بهلاكه شيئاً. كذلك قوله:

بما نكثو من بيعة بعد بيعة إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غداً

إشارة إلى عدم استقرار عرش الدولة الأموية وإلى نقض الناس البيعة لهم لأنهم مغتصبو الخلافة غير مستحقيها.

ثم هو يشير بمهارة إلى أن الناس حينما يبايعو اليوم للخلافة الأموية تحت وطأة الحرب فإنهم سريعاً ما ينقضون بيعتهم لأنهم غير راضين عنها.

وكذلك قوله:

وما أحدثوا من بدعة وعظيمة من القول لم تصعد إلى الله مصعدا

فمن الذى أحدث هذه البدعة؁ أهم الذين رفضوا أن يبايعوا مغتصب الخلافة أم الذى اغتصب الخلافة وحولها إلى ملك يرثه الابن عن أبيه؁ وهذا ما لا يقبله الله؁ فالبيت إذن غمز وتعريض بالبدعة التى استحدثها الأمويون.

أما قوله:

وجدنا بنى مروان خير أئمة وأعظم هذا الخلق حلماً وسؤدا

وخير قریش فی قریش أرومة وأكرمهم إلا النبی محمداً

ففى كلمة «أئمة» تهكم شديد بالأمويين لأنهم ملوك وليسوا أئمة وتفضيلهم على الخلق أيضاً بقوله: «وأعظم هذا الخلق» مبالغة مقصودة من قبل الأعشى ليفهم السامع المتبصر أنه إنما أراد الهجاء، وتأمل معى تفضيله لهم على قریش جمعاء باستثناء الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد فضلهم على كرام الصحابة والمسلمين السابقين للإسلام وذلك تعريض واضح وقوله: كذاك يضل الله من كان قلبه ضعيفاً ومن والى النفاق وألحدا

فى هذا البيت أيضاً دعاء على الحجاج وعلى الدولة الأموية، فالأعشى أطلق البيت ولم يحدده وإنما قال: «من كان»، ومن يكون قلبه ضعيفاً غير الحجاج الذى باع آخرته بدنياه غيره فما ربحت تجارتة. وقوله:

لقد شمت يا ابن أشعث العام مصرنا فضلوا وما لا قوا من الطير أسعدا

هذا البيت يحمل استخفافاً شديداً بعقلية الحجاج، فهو أمامه يهجو ابن الأشعث الذى طارت مدائحہ فيه كل مطار، فهو يفعل ذلك أمام الحجاج وكأنه يخاطب طفلاً صغيراً يمكن أن يسترضيه بسب أو بضرب طفل آخر أغضبه أو أخذ منه لعبته.

يمكننا بعد هذه الوقفة السريعة مع بعض أبيات القصيدة أن نتيقن من نزاهة الأعشى وتمسكه بمبادئه حتى آخر لحظة فى حياته، فكان قتيل شعره الذى كان يعبر به عن قضيته وذاته فى مواجهة أكبر الأشرار وهو الحجاج بن يوسف الثقفى.

شعراء قتلهم شعرهم

وضاح اليمن

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال بن داد بن أبي جمد، وسمى «وضاح» لجماله، وقد اختلف العرب قديماً في نسبه فمنهم من يقول إنه من أولاد الفرس الذين قدموا اليمن مع وهزر لنصرة سيف بن ذى يزن على الحبشة، ومنهم من يقول إنه من آل خولان بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم الذي ينتهى نسبه إلى يشجب بن يعرب، ولأن الرجل لم يمارس ولم يتهم ولم يتصف بالشعوبية فلا نرى حاجة لتقص نسبه ومحاولة ترجيح أحد الرأيين على الآخر، وإن كان رأى القائل بعروبة نسبه له ما يقويه على رأى الآخر، فله بيتان يتغزل فيهما بينات عمه فيقول:

إن قلبى معلق بنساء واضحات الحدود لسن بهجن

كان الوضاح شديد الجمال كما قلنا وكأ أحد ثلاثة من العرب يردون المواسم مقنعين يسترون وجوههم خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء لجمالهم، وهؤلاء الثلاثة هم المقنع الكندى، وأبو زيد الطائى، ووضاح اليمن.

ولاشك أن هذا الجمال كان بمثابة تصريح المرور لدى الوضاح فكان يهوى النساء وكانت النساء بدورهن يقعن أسيرات هواه، وقد عشق الوضاح امرأة قال لها «روضة» وقد اختلف أيضاً في نسبها، فمن العرب من يراها يمنية ومنهم من يراها فارسية ولأننا لانرى أهمية لهذه القضية في سياقنا هذا فلن نطرح هذا الأمر للمناقشة، فهى ليست بالنسبة لنا أكثر من امرأة عشقها الشاعر وكتب فيها بعض القصائد، ولايهم إذا كانت عربية أو فارسية أو رومية، عشقها الوضاح واشتد كلفه بها حتى اشتهر أمره معها وقد ذكرها في أشعاره دون كناية أو تورية أو مداراة، مما جعل رفض أهلها زواجه منها أمراً طبيعياً بعد ذلك، فالعرب ترفض تزويج الفتاة لمن يذكرها في شعره أو يشيع أمر

حبه على الملاء، خشية أن يظن الناس أن هذا الزواج إنما تم لستر أمر ما قد حدث بين
العاشقين، ومن شعره في روضة قوله:

ياروضة الوضاح قد	عنيت وضاح اليمن
فاسقى خليلك من شرا	ب لم يكدره السدرن
إنى تهيجنى إليك	حمامتان على فن
الزوج يدعوا إليه	فتطاعما حب السكن
لاخير فى نث ^(١) الحديد	ك ولا الجليس إذا فطن
فاعصى الوشاة فلما	قول الوشاة هو الغبن
إن الوشاة إذا أتو	ك تنصحووا ونهوك عن ^(٢)
لو قيل ياوضاح قم	فاختر لنفسك أو تمن
لم أعد روضة والذى	ساق الحجيج له البدن

لعلنا الآن نقف على طبيعة الغزل عند الوضاح، فلم يكن الوضاح شاعراً يتغزل غزلاً
عفيفاً، ولا غزلاً صريحاً، ولكنه كان يمزج بينهما بشكل فنى طريف، فالمفردات عفيفة والمعنى
صريح يبدو عند التأمل والتحقيق فى بعض الصور فى قوله:

(١) نث الحديث: إذاعته

(٢) يرريد أن يقول عنى وقد حذف الياء للوزن والقافية

فاسقى خليلك من شراب ب لم يكدره الدرن

إنى تهيجنى إليك حمامتان على فن

واضح أنه غزل صريح وإن كان اللفظ يأخذ القارىء فى البداية بعيداً عن هذه الرؤية،
فماذا يكون ذلك الشراب الذى لم يكدره الدرن إن لم يكن هو ريق حبيبته؟ وماهو وضع
الحمامتين اللتين «تهيجان» الشاعر على الفن؟

أليس وضعاً غرامياً مثيراً يود لو فاز بمثله مع محبوبته.

ومن طريف مقاله الوضاح فى روضة قوله:

ياروض جيرانكم الباكـر فالقلب لالاه ولاصاهر

قـالت ألا لاتلجن دارنا إن أبانا رجل غـائر

قلت فإنى طالب غـرة منه وسيفى صارم باتر

قالت فإن القصر من دوننا قلت فإنى سايح ماهر

قالت فحولى إخوة سـبـمة قلت فإنى غالب ماهر

قالت فليث رابض بيننا قلت فإنى أسد عاقر

قالت لقد أعـيـيتنا حـجة فأت إذا ماهجع السامر

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا نـاه ولا زاجر

هذه لوحة جميلة تصور أول ماتصور خصوبة خيال الشاعر الذى تخيل كل ذلك الحوار
بينه وبين حبيبته، وأعذب ما فيها هو تخيله لطول الحوار الذى يتمناه ويصعب على من هم

فى مثل ظروفهم أن يتبادلوه فى هداة وسكينة، فتصور أنها جالسة فى أمان بعيداً عن أعين الرقباء وما أكثرهم ثم راح يرجو وصلها رجاء المشتاق الظمىء المعذب، بينما ر راحت هى تحذره بدورها من عواقب تلك المجازفة، ولعل الوضاح كان يلتمس لحبيته العذر إثر العذر من خلال هذه العقبات التى كانت تضعها أمامه أو أمام لقائهما أو عبارة أخرى من خلال هذه العقبات التى يضعها هو على لسانها، وكأن لسان حاله يقول لها: «أعرف يا حبيبتي ما يمنعك منى».

ليس من الصواب أن يتصور القارىء لهذه الأبيات أن حواراً حقيقياً قد دار بين الوضاح وروضته ثم صاغه الوضاح شعراً بعد ذلك، فالأبيات تنتمى للون من الشعر يمكن أن نسميه شعر المجون وهو لون معروف سبق الواضح فيه شاعر كعمر بن أبى ربيعة الذى كان يحكى فى قصائده مغامراته مع النساء وكيف زارهن واستقبلنه وكيف قضى وطره منهن ثم كيف خرج من عندهن برغم المخاطر التى تحف ذلك، لكننا لن نتوقف عند ذلك الدليل، فليس معنى وجود ذلك اللون أن كل شعر يشبهه ينتمى إليه، لكننا سوف نأتى بدليل تخيل الحوار من الحوار ذاته، فإنه من المضحك بالفعل أن تحذر الفتاة حبيبها من أبيها فيقول لها:

قلت فلانى طالب غرة منه وسيفى صارم باتر

أليس من المضحك أن يفند الوضاح حجة حبيبته بقتل أبيها، فكأنه يقول لها إذا كان أبوك هو المشكلة قتلناه على غرة منه، وأى ليث ذلك الرابض بينهما لكى يكون الوضاح أمامه أسداً عاقراً، وقد تجاوزنا عن القصر والبحر والأخوة السبعة حول الفتاة. إن الوضاح بينه وبين نفسه أخذ يتصور كل ما يمكن أن يحول بينه وبين فتاته ويتصور أيضاً أنه يتغلب على

كل ذلك، ففي نهاية الأبيات يقول:

قالت لقد أعييتنا حجة فأت إذا ما هجع السامر

هذا البيت يؤيد أيضاً ما قلناه، فلم يكن الحوار بينهما مجرد جدل بيزنطى ينتهى بنصرة أحدهما على الآخر بقوة حجته ولكنه - إن كان حواراً حقيقياً - يترتب عليه حدث هام هو زيارة الشاعر لمحبوبته، وليس من السهل ذلك كما أن براعته فى المحاوره لا يمكن أن تلغى تلك المخاطر التى تصور أنها بهذه السهولة.

لم يكن الوضاح لينسى حبه بمجرد رفض أهل حبيبته تزويجه إياها، فالحب ليس من العلاقات الاجتماعية التى يمكن أن تتأثر أو تهتز لمثل هذه الأمور، فهو علاقة شديدة الخصوصية بينه وبين حبيبته، لذلك تراه يذكرها فى شعره حتى بعد أن زوجت غيره، فيقول:

يا أيها القلب بعض ما تجدد	قد يعشق المرء ثم يتدد
قد يكتم المرء حبه حقاً	وهو عميد وقلبه كمد
ماذا تريد من فتى غزل	قد شفه السقم فيك والسهد
يهددونى كيما أخافهم	هيهات أنى يهدد الأسد

لقد أصر وضاح على حبه لروضة حتى تدخل القدر ففرق بينهما الفراق الذى ليس بعده لقاء، فقد أصيبت روضة بمرض الجدام، وكان العرب يعزلون مرضى الجدام فى أماكن خاصة نائية عن الأماكن المأهولة كتلك التى نسميها الآن مناطق «الحجر الصحى» خوفاً من انتشار المرض بين الناس، وقد مر عليها الوضاح أثناء سفره مع بعض أصحابه، فاستوقفهم

وعدل عنهم ساعة فزارها وأصلح من شأنها وأعطاهما نفقة من ماله ثم عاد لأصحابه يبكى، فلما سألوه عن سبب بكائه أخبرهم بما رأى، لكن من الغريب أننا لا نجد للوضاح شعراً يرثى به روضة، ربما قال ذلك الشعر فضاع مع ماضع من الشعر العربى الذى لم تستطع السنوات الطويلة أن تحتفظ به كله، وربما ماتت ولم يعلم بموتها، وربما أراد أن يحتفظ بذكرها ندية فى نفسه، فرثاؤه لها يؤكد فكرة موتها التى ربما كان يود الفرار منها، كأنه يريد أن يحيا حياة المشتاق المعذب ويفضلها على حياة الفاقد الشاكل، ربما أراد أن يكون آخر عهده بها قوله:

لو قيل يا وضاح قم فاختر لنفسك أو تمن
لم أعد روضة والذى ساق الحجيج له البدن

حينما أقف أمام شخص ما تسبب جماله فى هلاكه أذكر على الفور قول الشاعر حافظ إبراهيم:

فوردة الروض لولا حسن منظرها لما استطالت عليها كف جانبها

فاليد تمتد لتقطف الوردة غير عابئة كثيراً بمصير هذه الوردة، ولم يكن الوضاح أقل جمالاً من وردة امتدت إليها يد أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك فأهلكتها.

كانت أم البنين فى حجها قد قدمت مكة ومعها بعض جواربها، وقد كتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إن ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن معها، لكنها حينما وقعت عينها على الوضاح هويته، وطلبت منه ومن كثير أن ينسبوا بها، لكن كثيراً أدرك عاقبة ذلك وتحسب له فعدل عن النسب بها ونسب بجارية لها تسمى غاضرة فقال:

شجا أظعان غاضرة الغواذى بغير مشورة عرضاً فؤادى

حنو العائدات على وسادى

أغاضر لو شهدت غداة بنتم

بواقلة تلذع كالزناد

أويت لعاشق^(١) لم تشكمي

لكن الوضاح لم يكن على ذلك القدر من الحذر والحيلة، فقد انطلق لسانه برقيق الشعر نسيباً في أم البنين، متغافلاً عن مكانتها ومكانة زوجها وهو من هو في الدولة، ولسنا نرى لجرأة الوضاح ما يبررها لامن الناحية العقلية ولا من الناحية العاطفية ولا من الناحية المادية.

فمن الناحية العقلية لم تكن أم البنين امرأة عادية شأنها شأن كل النساء اللاتي يمكن أن يتناولهن شاعر بالنسب مستنداً إلى بأسه أمام بأس زوجها، أو إلى بأس قبيلته أمام بأس قبيلتها، إنما كانت أم البنين زوجة الرجل الأول في الدولة وهو خليفة المسلمين، لذلك لا يمكن أن نمر بهذه المسألة دون أن نسجل استنكارنا لموقف الوضاح وجرأته التي جرت عليه الهلاك ووضعت في طريق رجل من عائلة جاءنا تاريخها مكتوباً بدماء قتلاها.

أما من الناحية العاطفية فلم يكن الوضاح عاشقاً يتحرق شوقاً لأم البنين فيتدفق اسمها في أشعاره وهو في نشوة المحب الغائب في نوبة شوقه، فيغفل أو يتغافل عن مكانة محبوبته ومكانة زوجها، إنما كان شاعراً جميل الوجه عشقته زوجة الخليفة وأرادت أن يؤثرها على النساء وينسب بها نسيباً يرضى غرور أنوثتها، فالمرأة هي المرأة في أي عصر وأي مكان ومكانة، تحب أن تكون الأثيرة لدى الرجال وأن يشتهر ذلك عنها، وليس أقدر على ذلك من

(١) أويت لعاشق: أشفقت عليه

الشاعر الذى كان فى ذلك العصر أوضح أجهزة الإعلان صوتاً لالتفاف الناس حوله وجريان شعره على ألسنتهم وترديده فى كل متدى وسوق، لكن ذلك لا يبرر للوضاح مافعله، فقد كان فى إمكانه أن يسترضيها بشيء غير حياته ولن يتهم بالبخل حينئذٍ أو بالجبن أو بالتخاذل.

أما من الناحية المادية فلم يثبت أن الوضاح كان فقيراً فيضطر لفعل مافعل طلباً للمال، ولو كان فقيراً لاحترف المدح والوقوف بباب الأغنياء وذوى المناصب فى الدولة، لكن تاريخه مملوء بقصص الهوى وشعر الغزل، كما أن النساء لاتجيز الشاعر المتغزل بالمال وإنما لهن ثرواتهم التى يمكن أن يهبن منها دون أن تنتقص شيئاً، وكان الأولى به أن يمدح زوجها وهو الخليفة فيعطيه مايغنيه وينصلح به حاله، وهذا بالضبط مافعله، فقد قال فيه بعض القصائد التى أشاد فيها بقوته وكرمه وسماحته وغير ذلك مما كان يمدح به الملوك والخلفاء، لكن ذلك حدث بعد فوات الأوان، فسرعان ما انتشر شعره فى أم البنين فلم تعد لمدائحه أى صدى عند الخليفة، فذلك أمر لا يمكن لقصيدة مهما بلغت فخامتها أن تمحوه أو تخفف من حدة وطأته، لذلك لانرى للوضاح عذره المادى.

أما التفسير الوحيد الذى يمكن أن نطرحه لموقف الوضاح فهو تفسير نفسى، فوجود كثير معه فى نفس الموقف ربما فتح عليه باب التميز والاختلاف، فأراد أن يصرح باسمها بعد أن تجاوز كثير عن ذلك وشبب بجارياتها «غاضرة»، ورغبة الرجل فى التميز أمام المرأة لا يعادلها إلا رغبة المرأة فى التميز أمام الرجل، ويمكننا أن نقول إن العالم لو خلا من النساء لخلا من بطولات الرجال، فلا يمكن أن نتصور أن الحروب التى خاضها عنتره من أجل عبلة كان من الممكن أن يخوضها من أجل رجل آخر أياً كانت مكانته بالنسبة لعنتره، فالمسألة بعد تجريدتها

من تفاصيلها هي مسألة امرأة عاشقة ورجل شاعر.

لعله من المناسب الآن أن نورد بعض أشعاره في أم البنين لنرى كيف يموت الرجل المجرد من أجل المرأة المجردة.

يقول وضاح:

أصحت عن أم البنيـ	من وذكرها وعنائها
وهجرتها هجر امرئ	لم يسل صفو صفائها
قرشية كالشمس أشـ	رق نورها بيهاها
زادت على البيض الحسا	ن بحسنها ونقائها
لما اسبكرت للشبـ	ب وقنعت بردائها
لم تلتفت للذاتـ	ومضت على غلوائها
لولا هوى أم البنيـ	من وحاجتى للقائها
قد قربت لى بغلة	محبوسة لنجائها

ومن شعره أيضاً مقطوعات أوضح غزلاً من المقطوعة السابقة وأكثر جرأة، يقول:

صدع البين والتفرق قلبى	وتولت أم البنين بلسبى
ثوت النفسى فى الحمول لديها	وتولى بالجسم منى صحبى
ولقد قلت والمدامع تجرى	بدموع كأنها فيض غرب
جزعاً للفراق يوم تولت	حسبى الله ذو المعارج حسبى

وإذا كان الشاعر في المقطوعتين السابقتين يستخدم في خطاب أم البنين ضمير الغائبة،
أى أنه يتكلم عنها ولا يكلمها فإنه في المقطوعة التالية يخاطبها خطاباً مباشراً فيقول:

يا ابنة الواحد جودى فما	إن تصرمينى ^(١) فبمما أولاً
جودى علينا اليوم أرى نرى	فيم قتلت الرجل المسلما
معلق القلب كتعليقها	واضحة كفاً علت معصما
ربة محراب إذا جئتها	لم ألقيها أو أرتقى سلما
لامنة أعلم كانت لها	عندى ولا تطلب فينا دما
بل هى لما رأت عاشقاً	صبا رمته اليوم فيمن رمى
لما ارتقىنا ورأت أنها	قد أثبتت في قلبه أسهما
أعجبها ذاك فأبدت له	سنتها ^(٢) البيضاء والمعصما
قامت تراءى على قصرها	بين جوار خرد ^(٣) كالدمى
وتمقد المرط ^(٤) على جصرة ^(٥)	مثل كتيب الرمل أو أعظما

لعلنا نجد دوافع القتل واضحة جلية في تلك المقطوعة لدى الوليد بن عبد الملك، فالبيت
الأول يقطر عشقاً متجاوزاً كل الحدود، فهو يستخدم النداء بـ «يا» وهى حرف ينادى به

(١) تصرمينى: تقاطعيني

(٢) سنتها: وجهها

(٣) خرد: جمع خريدة وهى البكر التى لم تمس قط، وقيل هى الحية الطويلة السكوت الخافضة الصوت

(٤) المرط: كساء من صوف أو خز أو كتان يؤتزر به

(٥) الجصرة: العجيزة

القريب والبعيد، فكأنه يريد أن يصور قريبا إلى نفسه وبعدها عن عينيه، واستخدم فعل الأمر «جودى» بما يحمل من دلالات تؤكد وثاقة الصلة بين الشاعر ومحبوبته، والتميز الذى جاء بعد فعل الأمر «فما» يضع الخطوط الأخيرة فتبدو اللوحة مخدعة لا يمكن رؤيتها أو قبولها على غير ذلك، وبذلك تكون الشطرة الأولى مسمارا فى نعش الوضاح.

أما الشطرة الثانية فبدأها الشاعر بأداة الشرط «إن» التى تفيد الشك، فكأنه قد وثق من نفسه ومن قدره عند محبوبته فأصبح يشك فى قدرتها على هجره أو مقاطعته، كما كان واضح الحساسية البلاغية حينما لم يجرىء بفعل بعد فعل الشرط «تصرمينى» يكون جواباً له، فكأنه يشك فى حدوث الفعل الأول يريد أن يستشير اللغة للتعاطف معه من خلال تجاوز قواعد أو التحايل عليها، لذلك جاء بعد فعل الشرط باستفهامين متوالين غرضهما الاستنكار والتعجب.

والبيت الأخير الذى صور فيه أم البنين وقد عقدت على جسرتها كساءً من الخز، فبدت عجيزتها كأعظم ماتكون إنما كان آخر مسمار فى نعش الوضاح.

وربما أحس الوضاح بما يحيط به من خطر من قبل الخليفة أو بتعبير أنسب من قبل زوج المرأة التى ملأ بها الدنيا شعراً، فراح يتغنى السبل لإرضائه، وقد وعدته أم البنين أن ترفده عنده وتقوى أمره، فمدحه الوضاح بعدة قصائد منها قوله:

صبا قلبى ومال إليك ميلاً	وأرقنى خيالك يا أثيلاً
ثمانية تلم بنا فتبدى	دقيق محاسن وتكن غيلاً
فإنك لو رأيت الخيل تعدو	سراعاً يتخذن النقع سيلاً

إذا لرأيت فوق الخيل أسداً تفيد مغامراً وتغيث نيلاً
إذا صار الوليد بنا وسرنا إلى خيل نلف بهن خيلاً
وتدخل بالسرور ديار قوم وتمقب آخرين أذى وويلاً

وكما كان الوليد يجزل صلة الشعراء فقد أجزل صلة الوضاح وأحسن رفده
وأغدق عليه بالعطايا حتى بلغه أنه شبب بأم البنين فجفاه وأمر بأن يحجب عنه ودبر
في قتله.

يورد أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني» بعضاً من الروايات حول قتل الوضاح،
تختلف في تفاصيلها وتتفق في نتيجتها، ففي إحدى هذه الروايات، أن الوضاح قد شبب بأم
البنين، فأمر الوليد بن عبد الملك بطلبه، فأتى به، فأمر بقتله فقال له ابنه عبد العزيز: لا تفعل
يا أمير المؤمنين فتحقق قوله، ولكن افعل به كما فعل معاوية بأبي دهيل، فإنه لما شبب بابنته
شكاه يزيد وسأله أن يقتله فقال: إذن تحقق قوله، ولكن تبره وتحسن إليه فيستحي ويكف
ويكذب نفسه، فلم يقبل الوليد من ابنه، وجعل الوضاح في صندوق ودفنه حياً.

وفي رواية ثانية أن أم البنين عشقت وضاحاً، فكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم
عندها، فإذا خافت وارتته في صندوق عندها وأقفلت عليه، فأهدى للوليد جوهر أعجبه،
فدعا خادماً له فبعث به إلى أم البنين وقال: قل لها: إن هذا الجوهر أعجبني فأثرتك به،
فدخل الخادم عليها مفاجأة ووضاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يرى، فأدى إليها رسالة
الوليد ودفع إليها الجوهر، ثم قال: يامولاتي هبيني منه حجراً، فقالت: لا يا ابن اللخناء
ولاكرامة، فرجع إلى الوليد فأخبره فقال: كذبت يا ابن اللخناء، وأمر به فوجئت عنقه، ثم
لبس نعليه ودخل على أم البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط، وقد وصف له الخادم

الصندوق الذى أدخلت الوضاح فيه، فجلس عليه ثم قال لها: يا أم البنين ما أحب إليك هذا البيت من بين بيوتك! فلم تختارينه؟ فقالت: أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجى كلها فأتناولها كلها من قريب.

فقال لها: هبى لى صندوقاً من هذه الصناديق، قالت: كلها لك يا أمير المؤمنين، قال: ماأريدها كلها، إنما أريد واحداً منها، فقالت: خذ أيها شئت، قال: هذا الذى جلست عليه، قالت: خذ غيره فإن لى فيه أشياء أحتاج إليها، قال: ماأريد غيره، قالت: خذه يا أمير المؤمنين، فدعا بالخدم وأمرهم بحمله، فحمله حتى انتهى به إلى مجلسه فوضعه فيه، ثم دعا عبيده فأمرهم فحفروا بئراً فى المجلس عميقة، فنحى البساط وحفرت إلى الماء ثم دعا بالصندوق فقال: يا هذا إنه بلغنا شىء إن كان حقاً فقد كفناك ودفناك وودفناذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً فإننا دفنا الخشب وماهون ذلك، ثم قذف فى البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض ورد البساط إلى حاله وجلس الوليد عليه، ثم مارئى بعد ذلك لوضاح أثر فى الدنيا، ومارأت أم البنين لذلك أثراً فى وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما.

وفى رواية ثالثة أن الوليد بن عبد الملك بلغه تشبيب وضاح بأم البنين فهم بقتله، فسأله عبد العزيز ابنه فيه، وقال له: إن قتلت فضحتنى وحققت قوله، وظن الناس أن بينه وبين أمى ريبة، فأمسك عنه على غيظ وحنق، حتى بلغ الوليد أنه قد تعدى أم البنين إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه، وقال فيها:

أخت الخليفة والخليفة بعلمها

بنت الخليفة والخليفة جدما

وكذاك كانوا فى المسرة أهلها

فرحت قوابلها بها وتباشرت

فأحرق واشتد غيظه وقال: أما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نساءنا وأخواتنا، ولاله عنا
مذهب! ثم دعا به فأحضر، وأمر بيتر فحفرت ودفنه فيها حياً.

مهما يكن من أمر هذه الروايات فلن نحاول ترجيح واحدة منها على الأخرى مادامت
الروايات جميعاً تتفق في دفن الوضاح، لكن أخباره وذكره وأشعاره لم تدفن معه كما كان
يعتقد الوليد.

شعراء قتلهم شعروهم

بشار بن برد

(لبشار فى تاريخ الأدب العربى صورة حالكة شديدة السواد، أسهم فى رسمها مؤرخو هذا الأدب، قدامى ومحدثون، ويطول المقام لو حاولنا حصر الصفحات الديمة التى ألصقت به، ويكفى أن نعرف أن هذه الصورة فى النهاية تكان تكون تجسيدا حيا للشمر الكامل المتجرد من كل ذرة من الخير، ولعل هذا ما يبيح لنا أن نزع من البداية أن مثل هذه الصورة المفرطة لا يعقل أن تتحقق - لاهى ولانقيضتها المبالغة فى الخير - فى بشر لأن الأرض التى نعيش عليها لم يخرج إليها الشياطين، كما لم تنزل عليها الملائكة.

بشار فى هذه الصورة الشائعة: قاسى القلب، حاقد على البشر، يعن فى هجائهم ويتلذذ به، داعر فاجر لا يعرف للعرض حرمة، شديد التهالك على النساء، يندفع إليهن اندفاعاً حيوانياً يشمئز منه الذوق.

كما جمع إلى دمامة الخلقة - فى هذه الصورة - ثقل الروح وغلظة الشعور، وجبن الطبع، وتلون الرأى وخيانة الصديق، ثم هو زنديق منافق، وشعوبى متبجح، وهجاء سليط اللسان^(١).

وهذه الصورة التى رسمها معاصروه والتى لم تزدها القرون إلا قتامة، وجدت من النقاد المعاصرين من يلقى عليها كثيراً من الظلمة التى صورت الرجل وكأنه غول متوحش مستندين إلى صفاته الجسمية، فقد (كان ضخماً، عظيم الخلق والوجه، مجدوراً طويلاً، جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظراً)^(٢).

(١) محاضرات فى الأدب العباسى للدكتور محمد عبد العزيز موافى ص ١٢٩ مكتبة الشباب

(٢) الأغانى ج ٣ ص ٩٨٧ ط. دار الشعب

ولم يدركوا أن هذا الأمر - لخروجه عن إرادته - لا يمكن أن يكون منقصة في الرجل ولا عيباً حصله ولا جرماً ارتكبه فيحاكم عليه.

واللوحة التي وصلتنا مصورة الملامح النفسية لبشار، لاشك هي لوحة كاريكاتورية تحمل بين خطوطها الكثير من المبالغة المقصودة وغير المقصودة، ولاشك أن بعض مواقف بشار والتي استخدمها معاصروه ومعاصروننا في رسم هذه اللوحة كانت وليدة مواقف أخذها منه مجتمعه، فكانت مواقف في مواجهة مواقفهم، ولم تكن طبيعة متأصلة في نفس الرجل..

ففي مسألة حقه على البشر - إن قبلناها كما وصلتنا - نجد واحداً منهم يتعرض لهجاء بشار، فيغلظ له القول ويعيره بعماء، ويرمى أمه بالزنا،

يقول أبو هشام الباهلي:

وعبدى فقا عينيك في الرحم أيره	فجئت ولم تعلم لعينيك فاقيا
ألمك يا بشار كانت عفيفة	على إذا مشى إلى البيت حافياً

كيف تتوقع رد فعل رجل حساس رهيف الشعور، حينما يسمع ذلك الهجاء الذي يقدم تعليلاً فيزيقياً لحدوث عاهته التي لا يستطيع أن ينساها، وكيف ينساها وكل ما في حياته الخاصة، والحياة العامة يذكره بها؟!

يقول أبو الفرج:

(ولم يزل بشار منذ قال فيه هذين البيتين منكسراً)، لقد انكسر الرجل، فهل نلومه على محاولته لم شتات نفسه المنكسرة ومحاولة إصلاحها، ألا يمكن أن نتوقع سلوكاً

مغايراً لبشار تجاه البشر إذا كانت الظروف مغايرة، وربما كان حمق المحيطين به سبباً آخر من أسباب تبرمه بالناس، (فقد رفع له غلامه فى حساب نفقته جلاء مرآة عشرة دراهم، فصاح به بشار قائلاً: والله ما فى الدنيا أعجب من جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم، والله لو صدئت عين الشمس، حتى يبقى العالم فى ظلمة ما بلغت أجرة من يجلوها عشرة دراهم)^(١)، ألا يستدعى ذلك الأمر حقاً من الرجل أمام حمق غلامه أو خبثه، فربما أراد أن يأخذ الدراهم العشرة لنفسه، فبشار لن يستطيع التحقق من جلاء المرأة، فوضعه بذلك - على الرغم من تفاهة المسألة فى أزمة كبرى، فكان رد فعله الطبيعى ذلك السخط الذى أغرق فيه غلامه.

يروى أبو الفرج:

(مر رجل ببشار فقال: يا بشار، فقال: من هذا الذى لا يكتفى ويدعونى باسمى؟ فقال: سأخبرك من أنا، فأخبرنى أنت عن أمك: أولدتك أعمى، أم عميت بعدما ولدتك؟ فقال: وماتريد إلى ذلك؟ قال: وددت أنه فسح لك فى بصرك ساعة لتنظر إلى وجهك فى المرأة، فعسى أن تمسك عن هجاء الناس وتعرف قدرك، فقال: ويحكم! من هذا؟ أما أحد يخبرنى من هذا؟ فقال له: على رسلك، أنا رجل من عكل خالى يبيع الفحم بالعبلاء، فما تقدر أن تقول لى؟ قال: لاشيء اذهب، بأبى أنت فى حفظ الله)^(٢).

إن هذه الغلظة التى لا يحتمل سماعها من لاناقة له فى الأمر ولا جمل، من الصعب جداً

(١) الأغاني ص ١٠٠٨

(٢) الأغاني ص ١٠١٨

أن نطالب رجلاً كبشار بتحملها، فإذا لم يفعل اتهمناه بالتبرم بالناس وبضيق الصدر وثقل الروح.

والغريب أن هذا الرجل المسكين كان محسوداً من شعراء عصره على ما يناله من عطايا، وقد فرض عليه شاعر يسمى «أبو الشمقمق» جزية سنوية يأخذها منه، إلى جانب ما يسر من كل أعطية يعطاها بشار، (أمر عقبة بن مسلم لبشار بعشرة آلاف درهم، فأخبر أبو الشمقمق بذلك، فوافى لبشار فقال له: يا أبا معاذ إني مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون:

هَلِّينَا هَلِّينَا طَعْن قِثَاءَ لَتِينَا

إِنْ بَشَارَ بِنَ بَرْدٍ تَيْسَ أَعْمَى فِي سَفِينَا

فأخرج إليه بشار مائتي درهم وقال: خذ هذه ولا تكن راوية للصبيان يا أبا الشمقمق»^(١).

أليس غريباً من شاعر هجاء أن يدفع ثمن السكوت عنه؟ ألم يكن من الطبيعي أن يتركه بشار يقول ما يقول، ثم يرد عليه؟! لقد كان بشار يشفق على نفسه من هجائهم، ولا شك أنه كان يعتقد بعدم التكافؤ بينه وبينهم، لامن الناحية الفنية، فقد كان بشار أقدمهم هجاء وأسلطهم لساناً، وقد تعرض لهجاء جرير شخصياً وقد أحزنه أن جريراً لم يرد عليه، لكن المسألة تختص بالآفة، إنه يحاول أن يتجنب مهاجمة من يبدأون بذكرها في هجائهم له، لأنه في هذه الحالة لن يستطيع الرد عليهم بمثل ما قالوا، وربما كان للهجاء تصور خاص في ذهن

(١) الأغاني ص ١٠٤١

بشار يخرج منه ماقاله أبو هشام الباهلى وأبو الشمقمق فلا مجال إذن للرد عليهم لأن ماقالوه ليس هجاءً فى تصور بشار وذلك ماأرجحه، وهذا أيضاً يدحض رأى القائل بجبنه عندما سكت عن من يهجوّه ولم يرد عليهم.

أما عن ثقل الروح فهى تهمة نراها تلصق بأى رجل غير بشار، فالفكاهة والدعابة وسرعة البديهة وخفة الروح عند بشار تفوق نظيراتها عند غيره من شعراء عصره، وسيرته تحمل الكثير من المواقف والشواهد على ذلك، يروى أبو الفرج: (مر بشار يقوم يحملون جنازة، وهم يسرعون المشى بها، فقال: مالهم مسرعين! أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ منهم؟)^(١).

هذه لفظة ودعابة إن صدرت عن رجل ثقیل الروح لفضل الناس ثقل الروح على خفتها. وبلغ بشار من خفة روحه أنه قال شعراً على لسان حماره الذى مات، وقد رآه فى المنام وسأله عن سبب موته، فقال:

سـيـدـى خـلـدـى أـتـانـا	عـنـد بـاب الأـصـبـهـانـى
تـيـمـمـتـنـى بـنـنـان	وـبـدـل قـد شـجـانـى
تـيـمـمـتـنـى يـوم رـحـنا	بـشـنـايـا هـا الحـسـان
وـبـفـنـنـج وـدـلـال	سـل جـسـمـى وـبـرانـى

(١) الأغاني ص ١٠٠٧

ولها خـد أسـيل مثل خـد الشـيفران
فلذا مت ولو عـشـشـ ست إذا طـال هـوانى

فلما سألوا بشاراً عن الشيفران، وكان لفظاً لاتعرفه العرب، قال: وما يدرينى، هذا من غريب الحمار، فإذا لقيته فاسأله.

أى خفة روح هذه التى تصور الحمار يموت عشقاً، وتجعله شاعراً غزلاً ينسب بالأتان الذى أضناه وتيمه وأرقه حبها حتى مات، وأى سرعة بديهة تلك التى أسعفته فى الرد على من سألته عن «الشيفران»، فقد أكد أنه يروى شعر الحمار لاشعره، ولا يصح أن يسأل هو عن غريب جاء به غيره ولو كان حماره.

وحشو الشعر بالغريب من الألفاظ أمر اشتهر به بشار، فكان إذا أعوزته القافية لا يتعب نفسه فى طلبها والبحث عنها وإنما كان ينحت لفظاً يراه مناسباً للقافية ويقول.

يروى أبو الفرج: (كان بشار يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالأشياء التى لاحقيقة لها، فمن ذلك أنه أنشد يوماً شعراً له فقال فيه:

غننى للغريض يابن قنان

ف قيل له: من بن قنان هذا، لسنا نعرفه من معنى البصرة؟ قال: وما عليكم منه! ألكم قبله دين فتطالبونه به، أو ثار تريدون أن تدركوه، أو كفلت لكم به فإذا غاب طالبتمونى بإحضاره؟ قالوا: ليس بيننا وبينه شىء من هذا، وإنما أردنا أن نعرفه، فقال: هو رجل يغنى لى ولا يخرج من بيتى، فقالوا له: إلى متى؟ قال: منذ ولد إلى يوم يموت^(١).

(١) الأغاني: ١٠٠٩

لا شك أن هذا الحوار قد دار بين أناس يضحكون ملء صدورهم، وأخال بشاراً يضحك حتى يفرق الضحك بين الحرف وأخيه في الكلمة التي ينطقها، ثم يتبع ذلك بأن يصفق بيديه، ثم يضرب فخذه بهما وقد تمايل جسمه الضخم، ودمعت عيناه الجاحظتان.

وكما كان بشار مزاحاً في مجالس اللهو، كان أيضاً مازحاً في مجالس الجد والعلم فكان يقول الطرفة اليسيرة التي تهديء من حدة المناقشات وتجدد دم الجلسة من خلال ابتسامة تكون فاصلاً، فيبدأون بعدها بداية جديدة، ومن ذلك (كان بشار جالساً في دار المهدي والناس ينتظرون الإذن، فقال بعض موالى المهدي لمن حضر: ما عندكم في قول الله عز وجل: «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر» فقال له بشار: النحل التي يعرفها الناس، فقال: هيهات يا أبا معاذ، النحل بنو هاشم، وقوله: «يخرج من بطونها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس» يعنى العلم، فقال له بشار: أرانى الله طعامك وشرابك وشفاءك يخرج من بطون بنى هاشم، فقد أوسعنا غثاء، فغضب وشتم بشاراً، وبلغ المهدي خبرهما فدعى بهما وسألهما عن القصة، فحدثه بشار بها، فضحك حتى أمسك على بطنه، ثم قال للرجل: أجل فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم، فإنك بارد غث)^(١).

واضح أن بشاراً أدرك ما بالرجل من النفاق الغث الذي جعل من ينافقه يشمئز منه ويوبخه ويهينه، لذلك عمد بشار إلى السخرية اللاذعة منه لأنه أدرك أن

(١) الأغاني ص ١٠٠٤

الرجل يفهم الآيات، ولكن يحلوه أن يفسرها تفسيراً يرائى به المهدي وهو من بنى هاشم.

(مر بشار بقاص في البصرة فسمعه يقول في قصصه: من صام رجلاً وشعبان ورمضان بنى الله له قصرأ في الجنة، صحنه ألف فرسخ في مثلها، وعلوه ألف فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها، فالتفت بشار إلى قائده فقال: بثت والله الدار هذه في كانون الثاني)^(١).

ربما كان ذلك رد فعل طبيعي تجاه مقولة رجل يدخل في الدين مالميس فيه، ومادام الأمر كذلك فلا بأس من أن يعلق بشار تعليقاً طريفاً فيه فكاهة تطفئ على غظيه من كلام الرجل.

ومن أطرف مواقف بشار التي تبرز سخريته من الاتجاهات المذهبية موقفه من رجل يسمى «هلال الرأي» وكان ثقيلاً لا يهتم له الناس، فقال له بشار: (يا هلال أطيعني في نصيحة أخصك بها؟ قال: نعم، قال: إنك كنت تسرق الحمير زماناً ثم تبت وصرت رافضياً^(٢)، فعد إلى سرقة الحمير فإنها والله خير لك من الرفض)^(٣).

إن هذا الخلط المقصود النابع من ازدراء بشار للرافضة وأتباعها لا يمكن أن يصدر إلا عن شخصية مرحة متفككة، تؤثر الضحك على اللجاج في المناقشات العقيمة التي يستمسك كل طرف فيها برأيه دون أن يسمع رأي وحجة الطرف الآخر، فبشار يحسم مثل هذه القضايا

(١) الأغاني ص ١٠٠٦

(٢) الرافضة. فرقة من الشيعة بايعوا زيداً بن علي ثم قالوا له تبرأ من الشيخين فأبى فرفضوه

(٣) الأغاني ص ١٠١٤

بشكل طريف، ينأى برأيه عن سماع المحفوظات التي يمكن أن يرددها هلال والتي حفظها في مجالس الرافضة، وأصبح مهياً لإلقائها في كل مناسبة تتاح.

هذه بعض المواقف التي رأينا أنها تدحض القول بثقل روح بشار وهي نقطة في محيط بالنسبة لما في حياته من مثل هذه المواقف، ولعل الذين قالوا بثقل روحه كان يعوزهم التعاطف معه أو على الأقل قراءة سيرته بحياد بعيداً عن تبرمه بالناس وضيقه بهم.

شعوبيته

أما كونه شعوبياً فهذا أمر ثابت عليه لن نحاول نفيه عنه، ولكننا سنحاول بقدر الإمكان توضيح ملامح شعوبيته، حتى يتسنى لنا الحكم الصحيح العادل عليها، هل هي رد فعل لموقف العرب تجاه الموالى أم هي نزعة متأصلة في نفس الرجل أخذ ينفث عنها في أشعاره، فقد (ساعد على اتساع الفجوة بين بشار ومجتمعه النظرة العرقية التي نظر بها العربى إلى الموالى غير مطبقين لمبادئ الإسلام في التسوية بين كافة الأجناس «سلمان منا آل البيت».. مكتفين بتطبيق العدل القضائى مهملين إقامة العدل الاجتماعى بينهم. فأخضعوا المجتمع المسلم لنظرة عنصرية يدينها الإسلام وانعكست هذه النظرة في مظاهر شتى من العلاقات الاجتماعية)^(١).

ونتيجة لهذا تعرض بشار لما عاناه غيره من الموالى، لكن بشاراً بحساسيته واعتداده بذاته، وازدراءه لمجتمعه - لن يسهل عليه تجرع تلك الإهانات، وإذن فلتشتعل

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج١ ص ٢٢

الحرب بينه - هو ومن ماثله - وبين المجتمع العربى، وبخاصة بعد أن دالت دولة العرب بقيام ملك بنى العباس على أكتاف الفرس الذين استغلوا وضعهم الجديد فى التنفيس عن أحقادهم المكبوتة، والشار لما لحقهم طوال الحكم الأموى الذى أزرى بهم وأخرهم عن غيرهم.

ومن هنا كان الصوت الشعبى من أقوى الأصوات فى شعر بشار، بدأه هادئاً، ثم استمر يعلو به حتى تحول إلى صخب وضجيج، يلاطم البيئة التى تصر على تحقير الموالى، وتعتنق النزعة العنصرية التى تجعل هؤلاء كما مهملات مؤخرات فى المجتمع ويمكن القول بأن هذه النزعة ضاعفت من حدة بشار وإفراطه فى هذا المجال فوقع فى نفس الخطأ الذى ارتكبه العرب، وعالج الداء بداء آخر لا يقل عنه شناعة^(١).

وهذا الداء الذى عالج به بشار داءه هو احتقار العرب والازدراء عليهم فى بعض شعره، وحتى نكون منصفين نقول إن هذا الاحتقار والازدراء لم يجرىء إلا نتيجة لمواقف استدعت ذلك، أى أن الرجل لم يكن يشيع أشعاره فى هجاء العرب، وإنما كان يقولها فى مواقف لتكون حصنه الذى يتحصن به أمام مواقف اتخذها بعض العرب تجاهه، منها مثلاً:

(دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوسى وبشار عنده وعليه بذة الشعراء، فقال الأعرابى: من الرجل؟ فقالوا: رجل شاعر، فقال: أمولى هو أم عربى؟ قالوا: بل مولى، فقال الأعرابى: ومال للموالى وللشعر! فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال: أتأذن لى يا أبا ثور؟

(١) محاضرات فى الأدب العباسى ص ١٤١

قال: قال ماشئت ياأبا معاذ، فأنشأ بشار يقول:

خليلى لأنام على اقتسار	ولا أبى على مولى وجار
سأخبر فآخر الأعراب عنى	وعنه حين تأذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزاً	ونادمت الكبار على العقار ^(١)
تفاخر يا ابن ربيعة وراع	بنى الأحرار حسبك من خسار ^(٢)
وكنيت إذا ظمئت إلى قراح	شركت الكلب فى ولغ الإطار ^(٣)
تريغ بخطبة كسر الموالى	وينسيك المكارم صيد فار ^(٤)
وتغدو للقناد تدريها	ولم تعقل بدراج الديار ^(٥)
وتشبح الشمال للابسيتها	وترعى الضأن بالبلد القفار
مقامك بينا دنس علينا	فليتك غائب فى حر نار
وفخرتك بين خنزير وكلب	على مثلى على الحدث الكبار

قال مجزأة للأعرابي: قبحك الله! أنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك^(٦).

هذا هو رد بشار على تهكم الأعرابي وسخريته، والواقع أن سؤال الأعرابي لا يخلو من سخف وسماجة، فبعد أن عرف أن الرجل شاعر، سأل أمولى هو أم عربى؟ وسؤاله يحمل

(١) الحزن: الحرير، العقار: الخمر

(٢) بنى الأحرار: يريد الفرس

(٤) تريغ: تريد

(٣) ولغ الإطار: شرب الماء الراكد حول البيت

(٥) تدريها: تنهز فرصة لصيدها، تعقل: تلحق، الدارج: القنفذ

(٦) الأغاني ص ١٠١٢ وما بعدها

اعترافاً بقدرة الموالى على قول الشعر وإجادتهم فيه وإكثارهم منه وكثرتهم فى ميدانه، ولو لم يكن كذلك لكان سؤاله على ذلك النحو: من أين الرجل؟ أو من أى العرب الشاعر؟ لكنه دون أن يدري اعترف بما استنكره بعد ذلك بقوله: ومال للموالى وللشعر.

يعلق أستاذنا الدكتور محمد عبد العزيز موافى على هذه القصيدة فيقول:

(ربما لو أمعنا النظر فى هذه القصيدة لأدركنا أنها ليست من قبيل ردود الأفعال، فالصور التى تلتصع فيها تكاد توحى بأنها نضجت على نار هادئة، وأن مبدعها يتهاى لإخراجها ويفتن فى رسمها قبل أن تحين الفرصة لإعلانها)^(١).

لكن القصة التى أوردها أبو الفرج نجعلنا نرى رأياً مخالفاً، ففي الرواية أن بشاراً غضب وسكت هنيهة، ولا يمكن أن يفسر سكوته على أنه كان يفكر أيقول القصيدة - لو سلمنا جدلاً بأنها معدة سلفاً - أم لايقولها، فليس مثل هذا السلوك يتبناه بشار، ولو كانت القصيدة معدة سلفاً لسارع بإلقائها دون انتظار شىء، فهذا يظهره فى صورة الشاعر السريع البديهة، المجيد الارتجال، كما أن الموقف لا يستدعى الانتظار، لقد أهين ومن حقه أن يرد على هذه الإهانة، إذن لم تكن فترة سكوته إلا للإعداد السريع الذى يكون الانفعال فيه وقوداً لاستطيع الليالى الهادئة توفيره، كما أن مجزأة السدوسى قد وبخ ذلك الأعرابى الذى تسبب فى وجود هذه القصيدة فقال له: قبحك الله! فأنت كسبت هذا الشر لنفسك ولأمثالك، فقد اعتبر مجزأة القصيدة موجهة وليست مطلقة، وجهها بشار لذلك الأعرابى

(١) محاضرات فى الأدب العباسى

وأمثاله ممن يبخسون الموالى حقهم ويحاولون النيل من قدرهم، ويؤيد هذا الرأى كون
مجزأة نفسه عربياً فهل يهجو به بشار - إذا كانت القصيدة مطلقة - وقد جاءه قاصداً
مدحه؟!

نستطيع إذن أن نقول دون مبالغة أو مغالاة أن الشعوبية لدى بشار كانت رد فعل للتفرقة
العنصرية التى سادت فى ذلك العصر، كما أن انتشار الشعوبية فى العصر العباسى يرى
الرجل من كراهيته الخاصة للعرب وحقده عليهم.

تهالكه على النساء

كان بشار رجلاً مكتمل الصحة الجسمية والنفسية، وكأى رجل كان ولعاً بالنساء،
والواقع أن ولع الرجال بالنساء أمر فطرى غرس فيهم، يتفاوتون بالنسبة لهذا الأمر تبعاً
للصحة الجسمية والخبرات النفسية، هذا بالنسبة للاشتهاء، أما عن مدى إعلان هذا الاشتها
فهذه قضية خلقية أكثر منها بيولوجية، فهم يتفاوتون فيه بحسب التدين والنشأة البيئية
والخلقية.

والمرأة بالنسبة لبشار هى المرأة بالنسبة لغيره من رجال عصره على الأقل ولانقول بالنسبة
للرجال بشكل مطلق، هى كائن رقيق، حنون، عذب الحديث، لديه كل ما يحتاجه الرجل
على الأقل فى لحظات خلوه التى يبحث فيها عن ذاته التى لا يجدها إلا عند امرأة.

ولقد وصف بشار بأنه ذو شهوانية مفرطة وتهالك زائد على النساء، يقول الدكتور عبد
العزیز الموائى (ولم يهرب بشار من مواجهة واقعه فكان لا يفتأ يعلل لتعلقه بالنساء على
الرغم من عماه «فالأذن تعشق قبل العين أحياناً» ودمعه يفيض غزيراً متحسراً على ما فاتته
بفقد البصر، ومع ذلك لم يعدم حجة يبرر بها تعلقه بالنساء.

وكاعب قالت لأثرابها
هل يمشق الإنسان من لا يرى
يا قوم ما أعجب هذا الضرير
فقلت والدمع بعيني غزير
إن تلك عيني لا ترى وجهها
فإنها قد صورت في الضمير^(١)

لماذا نطالب الرجل بتقديم حجة يبرر بها تعلقه بالنساء؟ هل هذا يحتاج إلى حجة، إن الحجة واضحة جلية لا تحتاج إلى أن يسأل عنها، ألا وهي أن بشاراً رجل، وهي امرأة، تعلق كل منهما بالآخر أمر يفرضه اختلافهما في الجنس.

ومسألة فقد بصره لا تخرجه من عداد البشر حتى يتعجب من عشقه لواحدة من البشر، وإذا كان الناس قد اعتادوا النظرة سبباً في حدوث العشق ففاقد البصر يملك البدائل لهذه النظرة، فالبصر حاسة واحدة، بينما الحواس البشرية خمسة، كما أن الإنسان - رجلاً كان أو امرأة - ليس لوحة مسطحة لا يمكن إدراكها إلا بوساطة العين، فالإنسان كائن يتكلم ويتنفس ويتحرك ويمارس الكثير من الأنشطة التي لا تجعله مجرد ملامح يجهلها من لا يراها.

الإنسان شخصية تتحرك في إطار هذه الملامح فإذا كانت العينان لا تدركان هذه الملامح، فالشخصية تُدرك ببقية الحواس فتحب أو تكره تبعاً لميل المحب لهذه الشخصية أو ميله عنها، وأعتقد أن هذا هو التحليل المقنع لرد فعل بشار تجاه من لاموه في حبة «عبدة» التي يبدو أنها لم تكن جميلة فقال:

(١) محاضرات في الأدب العباسي ص ١٥٨

يزهدنى فى حب «عبدة» معشر	قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارضى	فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى	ولا تسمع الأذنان إلا بمن القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا	وآلف بين العشق والعاشق الصب

المؤسف أن الناس قديماً وحديثاً استنكروا على بشار حبة للنساء، فلما أحب النساء، وصفوه بالشهوانية المفرطة التي تصل إلى الحيوانية، ثم راحوا يعللون هذا الإفراط فى الشهوة بعاهته - عماه - ويورد الأصمعى قولاً فى ذلك لم نسمع بأطرف ولا أفكه منه يقول:

(هما طرفان مذهب من أحدهما زاد فى الآخر)، وهو يقصد بالطرفين البصر والفحولة، وليس من تعليق على قوله سوى أن نسأله هذه الأسئلة: هل يمكن علاج العمى بالاختصاص؟ وهل يمكن علاج العجز الجنسى بفقء عين واحدة إذا كان عجزاً جزئياً، وبفقء العينين إذا كان العجز كلياً؟!

ويبدو أن أهل عصره قد أثقلوا عليه باستنكارهم المزعج لأن يكون عاشقاً حتى كثر شعره فى الرد عليهم وإفهامهم أن القلب محل العشق لا العين، يقول:

يا قوم أذننى لبعض الحى عاشقة	والأذن تمسك قبل العين أحياناً
قالوا: بمن لا ترى تهذى فقلت لهم	الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
وقال أيضاً:	

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها	قلبى فأضحى به من حبها أثر
أنى ولم ترها تهذى فقلت لهم	إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

وقال:

إن سـليـمى واللـه يـكلـؤـها كـالسـكـر تـزـداده على السـكـر
بـلـّغـت عنها شكلاً فأعـجـبـنى والسمـع يكفـيك غـيـبة البـصـر

إن تشابه مضمون هذه الآيات الذى يقودنا إلى الإحساس بالتكرار راجع إلى تشابه المواقف أو تكرارها، وكأن بشاراً يقول لهم: كُفُّوا ويحكم إننى بشر، والعينان ليستا هما إنسانية الإنسان، وهو حينما يكرر لفظ «الأذن» و«القلب» يريد أن يذكر الناس ويفهمهم أنه مثلهم يسمع ويحس، فقيم إذن استنكارهم؟!

وهذا الاستنكار هو الذى لفت نظر معاصرى بشار إلى سلوكه تجاه النساء فأصبح الرجل مراقباً مداناً من مجتمع لم يكن خيراً منه ولا أقل منه حرصاً على الاستمتاع بالمرأة، بل تجاوزوا ذلك واستمتعوا بالغلمان والرجال، لقد رأى ذلك المجتمع بشاراً بالمجهر حتى بدت تفاصيل حياته واضحة جليلة أمامهم، وبدت مغامراته الطبيعية - كما وكيفاً بالنسبة لعصره - مكبرة مئات المرات، حتى كرهوه وتبرموا به، وصروره كما لم يصور بشر.

هجاؤه ومقتله

(إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللثام على المديح فليستعد للفقر وإلا فليبالغ فى الهجاء ليُخاف فيعطى)^(١).

هكذا تكلم بشار بن برد حينما سئل عن ميله للهجاء وإكثاره منه، والواقع أن

(١) الأغاني ص ١٠٥٣

شخصية بشار كانت بطبيعتها وتكوينها النفسى ومكانها من المجتمع أميل إلى الهجاء منه أى غرض شعري آخر، فنفسه الرقيقة التى قوبلت بغلظة المجتمع وجفائه كان عليها أن تثار لنفسها بالهجاء أو على الأقل تجعل منه حصناً تحمى به من مجتمع كالذى وجدت فيه، كما أن اختلافه - بمولده فاقد البصر - عن العامة قد حال بينه وبين القيام بعمل يرتزق منه، فلم يكن أمامه من طريق إلا الشعر الذى أخذ له أحد أغراضه وهو المدح، فقد مدح الكثيرين ولم يعطوه شيئاً، فتوصل أخيراً إلى أن الهجاء هو أقصر السبل للشهرة والشراء معاً.

ويبدو أن بشاراً قد احترف الهجاء منذ صباه المبكر (فإذا هجأ قوماً جاءوا إلى أبيه يشكونه فيضربه ضرباً شديداً فكانت أمه تقول: كم تضرب هذا الصبي الضرير، أما ترحمه! فيقول: بلى والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلىّ، فسمعه بشار فطمع فيه فقال له: ياأبت إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر، وإنى إن أملت عليه أغنيتك وسائر أهلى، فإن شكونى إليك فقل لهم: أليس الله يقول «ليس على الأعمى حرج» فلما عاودوا شكواه قال لهم برد ما قال بشار، فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار)^(١).

وهكذا ذاع صيت بشار من خلال هجائه الذى كان يؤرق ويرعب من يتوعدهم به، ولم يكن بشار يخشى فى هجائه شخصية كبيرة فى الدولة ولا شخصية ذات حسب ونسب

(١) الأغاني ص ١٠٥٤

عريضين. وقد هجا العباس بن محمد أخا الخليفة المنصور، وهجا الخليفة المهدي نفسه
ووزيره يعقوب بن داود يقول في هجاء العباس:

ظل اليسار على العباسي ممدود	وقلبه أبدأ في البخل معقود
إن الكريم ليخفى عنك عسرته	حتى ترراه غنياً وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل	زرق العيون عليها أوجه سود
إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم	تقدر على سعة لم يظهر الجود

وهكذا كان الهجاء يمثل الخطوة التالية الطبيعية بعد أن يمدح فيخيب أمله ولا يعطى، فكان هجاؤه بمثابة رجوع عن المدح الذي يرى أن ممدوحه - حين لم يعطه - لا يستحقه، وهكذا هجا العباس ورماه بالبخل بعد أن أثبت له الغنى حتى يظهر بخله واضحاً، ثم صورة الكريم الذي يخفى فقره عن الناس ويعطيهم حتى يظنوه غنياً، وهذه المفارقة تبرز الصورة وتزيد من تأثيرها في نفس السامع حتى يظهر في الصورة الرجل الغنى الذي لا يعطى والفقير الذي يعطى.

وقد مدح بشار الوزير يعقوب بن داود فلم يعطه شيئاً، فلما مازحه بشار علّه يمنحه،
أغلظ له يعقوب القول، فقال يهجو:

لا يأسن فقير من غنى أبدأ	بعد الذي نال يعقوب بن داود
قد صار من بعد إشراف على تلف	وبعد غلّ على الزندين مشدود
أخاً لمهدي خلق الله كلهم	يوفى به فسوق أعناق الصناديد
لئن حسدت على مانلت من شرف	لقد عنيت زماناً غير محسود

بنى أمية هبو طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وقد (مدح بشار الخليفة المهدي فلم يعطه شيئاً، فقليل ندم لم يستجد شعرك، فقال: والله لقد قلت شعراً لو قيل في الدهر لم يخش صحنى أحد، ولكننا نكذب في القول فنكذب في الأمل)^(١)، وكان قد قال فيه:

إلى ملك من هاشم في ردة ومن حمير بن الملك في العدد الدثر^(٢)

من المشتريين الحمد تندى من الندى يداه ويندى عارضاه من العطر

فألزمت حبلى حبل من لا تُغْبِه عفاة الندى من حيث يدري ولا يدري

بنى لك عبد الله بيت خلافة نزلت بها بين الفراقد والنسر

وعندك عهد من وصاة محمد فرعت به الأملاك من ولد النضر^(٣)

فلما لم يعطه الخليفة مالاً ولا كسوة ولا ناقة ضاق به ذرعاً وقال يهجوهُ:

خليفة يزنى بعماته يلعب بالدبوق والصوبجان^(٤)

أبدلنا الله به غيره ودس موسى في حر الخيزران

ومن خلال أعداء بشار - وما أكثرهم - وصل شعره هذا إلى الوزير يعقوب بن داود

(١) الأغاني ص ١٠٦٢

(٢) الدثر: الكثير

(٣) فرعت: علوت

(٤) الدبوق: لعبة يلعب بها الصبيان

الذى ناله من لسان بعار عار كبير، فسعى بهذا الشعر إلى المهدي (فدخل يعقوب على المهدي فقال له: يا أمير المؤمنين، إن هذا الأعمى الملحد الزنديق قد هجأك، فقال: بأى شيء، قال: بما لا ينطق به لسانى ولا يتوهمه فكرى، قال له: بحياتى إلا أنشدتنى، فقال: والله لو خيرتنى بين إنشادى إياه وضرب عنقى لا اخترت ضرب عنقى، فحلف عليه المهدي بالآيمان التى لا فسحة فيها أن يخبره، فقال: أما لفظاً فلا، ولكنى أكتب ذلك، فكتبه ودفعه إليه، فكاد ينشق غيظاً^(١)، ثم قصد المهدي البصرة وقبض على بشار وأمر بضربه بالسوط حتى الموت، فأخذ إلى سفينة وضرب سبعين سوطاً حتى مات فآلقوا به فى الماء، (فحملة الماء فأخرجه إلى دجلة فأخذ فأتى به أهله فدفنوه)^(٢).

وهكذا مات بشار بن برد ضحية لمجتمع شمت بموته وقد تبأشر الناس وهنا بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا.

ولم يمش فى جنازة بشار إلا أمه سوداء سندية عجماء ماتفصح تصيح: واسيداه! واسيداه.

وهذه الأمة هى «عبدة» التى قال فيها:

يمأتبنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبى

ويبدو أن قلبها فيه كان مخالفاً قلوبهم، فهى الوحيدة التى استطاعت أن ترى وتلمس وتكلم وتصاحب بشاراً الإنسان.

(١) الأغاني ص ١٠٨٩

(٢) الأغاني ص ١٠٩٤

شعراء قتلهم شعرهم

حماد عجرد

هو واحد من كبار هجائي عصره، كانت بينه وبين بشار بن برد جولات كثيرة امتدت حتى بعد موت حماد، وهجاء حماد أفحش وأقذع كثيراً من هجاء بشار غير أن الهجاء عند بشار كان أرقى من الناحية الفنية وأكثر صوراً.

وعلى كثرة الهجاء في شعر حماد إلا أننا لانستطيع أن نعرض إلا النذر اليسير وذلك لفحشه وامتلائه بالألفاظ المستنكرة التي ياباها الذوق وتمجها الأذان، حتى بدا بشار أمامه شاعراً مهذباً عفيف اللفظ رقيق الصورة.

ويبدو أن حماداً كان أكثر اقتراباً من صفوة المجتمع العباسي آنئذ من بشار فكان بشار يسأله قضاء حاجاته عندهم، وحدث أن أبطأ حماد في إنجاز حاجة لبشار عند عقبة بن نافع، فغضب بشار وقال يهجوهم:

مواعيد حماد سماء مخيلة	تكشف عن رعد ولكن ستبرق
إذا جثته يوماً أحال على غدٍ	كما وعد الكمون مالم يصدق ^(١)
وفى نافع عني جفاء وأننى	لأطرق أحياناً وذو اللب يطرق
وللنقرى قوم فلو كنت منهم	دعيت ولكن دونى الباب مغلق ^(٢)
أبا عمر خلفت خلفك حاجتى	وحاجة غيرى بين عينيك تبرق

فغضب حماد من قول بشار وأنشد نافعاً الشعر ومنعه من صلة بشار، وهكذا بدأت

(١) الكمون: النبات المعروف، ويضرب المثل بمواعيد شره فيما لا يصدق

(٢) النقرى: الدعوة الخاصة

الحرب مستمرة بينهما، وقد اتفقا على أن يكون بينهما وسيط ينقل لكل واحد شعر الآخر فيه، ونقل الرجل لبشار قول حماد:

إن تاه بشار عليكم فقد	أمكنت بشاراً من التيه
وذلك إذ سميت به باسمه	ولم يكن حريسميه
فصار إنساناً بذكرى له	ما يستغنى من بعد ذكره
ولم أهج بشاراً ولكتني	هجوت نفسي بهجائيه
لم آت شيئاً قط فيما مضى	ولست فيما عشت آتية
أسوالى فى الناس أحدوة	من خطايا أخطائه فية
فأصبح اليوم بسبى له	اعظم شأناً من مواليه

ومن سلوك حماد فى هجاء بشار يتضح أن حماداً كان ينقصه الكثير من الإنصاف والإلتزام بما يتطلبه شرف التنافس، وذلك لأنه كان يعتمد فى هجائه لبشار على عاهته، ولا يبالى فى ذلك بالأزمة النفسية التى تصيبه، حتى يخرج الأمر بذلك عن كونه هجاءً فنياً إلى مجرد إثارة الضغائن وتفتيت نفس بشار الذى كان يتقبل هجاءه بروح أدبية عالية ولا يجد حرجاً فى إبداء إعجابه ببعض أبياته. إلى أن قال حماد:

وأعنى قلوبان ما على قاذفه حد^(١)

(١) القلطان: القواد

شبيهه الوجه بالقرد	إذا ماعى القرد
ولو ينكه فى صلد	صفا لاتصدع الصلد ^(١)
دنى لم يرح يوماً	إلى مجد ولم يغد
ولم يحضر مع الحضار	فى خير ولم يبد
ولم يُخش له ذم	ولم يرج له سم
هو الكلب إذا ما	ت لم يوجد له نقد

وحينما سمع بشار البيت الثانى بكى، (فقليل له: أتبكى من هجاء حماد، قال: والله ما أبكى من هجائه ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه، فيصفنى ولا أصفه)^(٢).

من الطبيعى إذن أن يتحول الهجاء بينهما إلى غير ذلك حتى أصبح بشار يتتبع حماداً ويحاول أن يضيق عليه رزقه، وكان الربيع بن يونس وزير المنصور قد اختار حماداً مؤدباً لولده، فكتب إليه بشار يقول:

يا أبا الفضل لانم	وقع الذئب فى الغنم
إن حماد عجرد	إن رأى غفلة هجم
إن خلا البيت ساعة	مجمع الميم بالقلم ^(٣)

(١) ينكه: يتنفس

(٢) الأغانى ص ٥٢٠٧

(٣) مجمع: أفسد، الميم: كناية عن الدبر، القلم: كناية عن القبل

فلما قرأ الربيع هذه الأبيات قال: (صيرنى حماد دريئة الشعراء، أخرجوا عنى حماداً، فأخرج)^(١).

بين حماد وبشار تشابه كبير فى عدة نقاط تتعلق بالشخصية والفن والسلوك والعقيدة والمصير. فـشخصية كل منهما هى شخصية الفنان الساخر الناقم على مجتمعه المتعرض لمثالب الناس وعيوبهم، حتى صار كل منهما مخشياً مهاباً، يتجنبه الناس أو يقتربون منه على استحياء وحذر.

الفن الذى جمع بينهما هو الشعر، وعلى الرغم من إبداع كل منهما فى كافة أغراضه إلا أن الهجاء كان يمثل الكثرة الكاثرة فى شعره، كما كان أيضاً يمثل شاعريته فى أرقى مراتبها، وذلك لطبيعة الشخصية التى يناسبها الهجاء أكثر من الغزل أو المدح أو الفخر أو غير ذلك من الأغراض، كما تميز الهجاء عند كل منهما بالإنحاش والسلطة حتى أصبح شعرهم فى ذلك الغرض حبيس كتب التراث، حيث لا تستطيع الدراسات الحديثة روايته إلا فيما ندر، حيث اختلفت الأذواق وتغيرت مدلولات الألفاظ، فصار اللفظ مستهجناً لا يمكن أن يرويه أديب فى دراسة أو أستاذ جامعى فى محاضرة، فلم يعد لهذا اللون من الشعر متنفس ومخرج إلى الناس إلا من خلال الكتب القديمة المحققة تحقيقاً حديثاً. ولا يمثل هذا الأمر عيباً فى شعرهم - من الناحية الفنية - ولكنها مسألة طبيعية، فالناس يجتنبون اللفظ الخاص الذى تلوكه ألسنة العامة فيصبح بطبيعته لفضاً منبوذاً تتجنبه الألسن وتنصرف عنه الآذان.

(١) الأغاني ص ٥٢٠٧

والسلوك الذي يشتركان فيه هو المجون، فقد كان بشار ماجناً عابثاً، وقد بالغ مجتمعه في تصوير مجونه وخلاعته، وهو إن لم يكن كذلك فلن يكون إلا أقل من ذلك بقليل، وحماد فاق بشاراً خلاعة ومجوناً، وزاد عليه أنه كان لوطياً يستمتع بالغللمان، وله شعر في التشبيب بـغلام يسمى «أبو بشر» يقول فيه:

أخى كف عن لومي فإنك لاتدرى	بما فعل الحب المبرح في صدرى
أخى أنت تلقانى وقلبك فارغ	وقلبي مشغول الجوانح بالفكر
أخى إن دائى ليس عندى دواؤه	ولكن دوائى عند قلب أبى بشر
دوائى ودائى عند من لو رأته	يقلب عينيه لأقصررت عن زجري
فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى	لأقصررت عن لومي وأطبت فى عذرى
ولكن بلائى منك أنك ناصح	وأنك لاتدرى بأنك تدرى

كما تروى عن حماد قصص كثيرة تثبت عليه ذلك منها ما يرويه أبو الفرج قال:

(حدثني أبو يعقوب الخزيمى يقول: كنت فى مجلس فيه حماد عجرد ومعنا غلام أمرد، فوضع حماد عينه عليه، وعلى الموضع الذى ينام عليه، فلما كان الليل اختلفت مواضع نومنا فقامت فنمت فى موضع الغلام، ودب حماد إلى يظننى الغلام، فلما أحسست به أخذت يده فوضعتها على عيني العوراء لأعلمه أنى أبو يعقوب، فنثر يده ومضى فى شأنه وهو يقول: «وفديناه بذبح عظيم»^(١)).

(١) الأغاني ص ٥٢١٧

هذا بالإضافة إلى أن كل منهما كان سكيراً عريداً. والعقيدة عندهم مضطربة والإحساس الدينى يكاد يكون منعدماً، وقد اتهم بشار بالزندقة وجعلت ستاراً لقتله، ولم يكن حماد زنديقاً عادياً وإنما كان إماماً للزندقة، وله شعر كانوا يتلونونه فى صلاتهم، وكل من بشار وحماد كان يعادى واحداً من العلماء الأجلاء فى ذلك العصر ويهجوهم، فقد هجا بشار واصل بن عطاء بقوله:

مالى أشايح غزالاً لى عنق كنفتق الدؤان لى وإن مثلاً^(١)
عنق الزرافة مابالى وبالكم تكفرون رجلاً كفروا رجلاً

(فلما تتابع على واصل منه ما يشهد على إلحاده خطب به واصل، وكان الشغ على الرء، فكان يجتنبها فى كلامه، فقال: أما لهذا الأعمى الملحد، أما لهذا المكنى بأبى معاذ من يقتله؟ أما والله لو أن الغيلة سبجية من سجايا الغالية لدست إليه من يبيع بطنه فى جوف منزله أو فى حلقه)^(٢).

وهجا حماد الإمام أبا حنيفة النعمان، وقد كانا صديقين ثم نسك أبو حنيفة ودرس الفقه وتعلمه حتى بلغ فيه مابلغ، ويبدو أنه حاول مع حماد بعض المحاولات لإصلاحه ورده عما هو عليه، لكن حماداً أصر على ما هو فيه فرفضه أبو حنيفة وذكره فى مجالسه يحذر الناس منه ومن صحبته، فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذكره، وظل أبو حنيفة يذكره بذلك حتى قال فيه حماد هذه الأبيات:

(١) غزالاً: يقصد واصلًا لكثرة جلوسه فى السوق، النفثق: ذكر النعام، الدؤ: الغلاة
(٢) الأغانى ج ٣ ص ٩٩٢

إن كان نسكك لا يثـ	ثم بغير شئى وانتقاصى
أو لم تكن إلا بهـ	ترجو النجاة من القصاص
فأعمد وقم بى كيف شئـ	ت من الأدانى والأقاصى
فلطالما زكيتنى	وأنا المقيم على المعاصى
أيام تأخذهما وتمـ	طى فى أباريق الرصاص

بعد أن سمع الإمام أبو حنيفة هذه الآيات أمسك عن ذكر حماد خوفاً من لسانه الذى لا يتورع عن إلصاق أى تهمة مهما عظمت بالرجل الفقيه.

وقد بلغ منهما مبلغاً عظيماً فى الزندقة حتى فضلاً شعريهما على القرآن، فقد سمع بشار جارية تغنى شعره الذى يقول فيه::

إن الخليفة قد أبى	وإذا أبى شيئاً أبيتـ
ومخضب رخص البنا	ن بكى على وما بكيتـ
يا منظرأ حسناً رأيتـ	ت بوجه جارية فديتـ
بعثت إلى تسومنى	ثوب الشباب وقد طويتـ

فطرب بشار وقال: هى والله أحسن من سورة الحشر^(١).

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١٠٥٧

كما نسب لحماذ خبر كهذا، فقالوا (أن حماد عجرد كان ينشد شعراً، ورجل بإزائه يقرأ القرآن، وقد اجتمع الناس عليه، فقال حماد: علام اجتمعوا؟ فوالله لما أقول أحسن مما يقول)^(١).

وكما كان بشار لا يقرب الصلاة وكان أصحابه يضعون التراب حول ثوبه ليعلموا أيقوم أم يبقى في مكانه فلما يعودون يجدون التراب كما هو فيعلمون أنه لم يقم، كذلك كان حماد لا يصلي بل ويستثقل الإطالة فيها على الرغم من أن الذي يصلي غيره، وقد هجا رجلاً يسمى سهم بن عبد الحميد الذي كان يصلي المضحى وهم ينتظرونه حتى يبدأوا الغداء، فلما أطال سهم قال حماد:

ألا أيها القانت المتهجد صلاتك للرحمن أم لي تسجد

أما والذي نادى من الطور عبده لمن غير مابر تقوم وتعمد

(فلما سمعها سهم قطع الصلاة وجاء مبادراً، فقال له: قبحك الله يا زنديق، فعلت بي هذا كله لشير هك في تقديم أكل وتأخيرها هاتوا طعامكم فاطعموا لا أطمعه الله تعالى، فقدمت المائدة)^(٢).

أما عن المصير المشترك الذي صار إليه كل منهما، فهو القتل بسبب الشعر، وقد رأينا كيف قتل بشار بسبب هجائه، وسرى كيف قتل حماد بسبب تشبيهه بامرأة تسمى زينب بنت سليمان.

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٥٢٠٥

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٥٢١٣

كان محمد بن أبي العباس السفاح يهوى زينب فخطبها فلم يزوجه، وكان حماد صديقه ونديه، فقال له محمد: قل فيها شعراً، فقال حماد على لسان محمد:

زينب ما ذنبى وماذا الذى	غضبتُ منه ولم تغضبوا
والله ما أعرف لى عندكم	ذنباً فسفيم الهجر يا زينب
إن كنت قد أغضبتكم ضلة	فاستعتبونى إننى أعتب
عودوا على جهلى بأحلامكم	إنسى وإن لم أذنب المذنب

وقال أيضاً على لسان محمد بن أبي العباس السفاح:

ألا من لقلب مستهام معذب	بحب غزال فى الحجال مربب
يراه فلا يستطيع رداً لطرفه	إليه حذار الكاشح المترقب
ولولا ملك نافذ فيه حكمه	لأدى وصالاً ذاهباً كل مذهب

فلما بلغ ذلك الشعر مسامع محمد بن سليمان - أخى زينب - نذر دمه وأصر على قتله لكنه لم يستطع لمكانة حماد من محمد بن أبي العباس، فلما مات بن أبي العباس جد ابن سليمان فى طلبه، فخاف حماد ولم يجد من يلوذ به ويستجير بحماه، فاستجار بقبر سليمان بن على - أبى محمد بن سليمان - وراح يمدحه ويمدح سليمان، فقال:

من مقر بالذنب لم يوجب الله	به عليه بسىء إقراراً
ليس إلا بفضل حلمك يفتـ	ربلاء وما يعمد اغتراراً ^(١)

(١) يفتـ: ينكشف ويزول

لإلا إليك منك الفرار

بلى من حوادث الدهر جارا

تقبر أن يأمن الردى والمثارا

فاستجرت التراب والأحجارا

من قحطان كلها ونزارا

ض مجير أعز منه جوارا

ست إليه الموازب الأكوارا^(١)

ن لمن كان مذنبا غفارا

عفو ماقلت كن فكان اقتدارا

كان جارى يطول الأعمارا

يا ابن بنت النبي أحمد لا أجمع

غير أنى جعلت قبر أبى أيو

وحسرى من استجار بذلك الـ

لم أجد لى من العباد مجيرا

لست أعتاض منكم فى ابتغاء العـ

فأنا اليوم جارى من ليس فى الأر

يا ابن بنت النبي ياخير من حطـ

إن أكن مذنبا فأنت ابن من كا

فاعف عني فقد قدرت وخير الـ

لو يطيل الأعمار جارى لعز

لكن محمد بن سليمان لم يرض بهذا وقال: والله لأبلى قبر أبى من دمه، فلم يجد حماد
بدأ من الفرار إلى بغداد حيث يمكنه أن يستجير بجعفر المنصور الذى أجاره فعلاً واشترط
لذلك أن يهجو محمداً بن سليمان فقال فيه حماد:

سوف أهدى لزئيب الأشعارا

قل لوجه الخصى ذى العار أنسى

(١) الموازب: الإبل، الأكوار: جمع كور وهو الرحل

قد لعمري فررت من شدة الخو ف وأنكرت صاحبي نهارا
وظننت القبور تمنع جارا فاستجرت التراب والأحجارا
كنت عند استجارتى بأبى أيد سوب أبغى ضلالة وخسارا
لم يجرنى ولم أجد فيه حظاً أضرم الله ذلك القبر نارا

وقال أيضاً فى هجائه:

يا ابن سليمان يا محمد يا من يشتري المكرمات بالسمن
إن فخرت هاشم بمكرمة فخرت بالشحم منك وبالعكن^(١)
لؤمك باد لمن يراك إذا أقبلت فى العارضين والذقن^(٢)
ليتك إذ كنت ضيقاً نكراً لم تدع من هاشم ولم تكن^(٣)
جداك جدان لم تعب بهما لكنما العيب منك فى البدن

فلما بلغ محمداً قوله قال: (والله لا يفلتنى أبداً، وإنما يزداد حتفه بلسانه، ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً). وظل ابن سليمان يطلب حماداً، وحماد ينتقل من مكان إلى مكان يبحث عن مأوى وملاذ حتى أدركه بن سليمان فى منطقة تسمى الأهواز، فأرسل مولى له فظفر به فقتله.

(١) العكن: البطن المتدلى من السمرة

(٢) العارضان: الخدان

(٣) نكر: خبيث

شعراء قتلهم شعرهم

امرو القيس

سأل امرؤ القيس زوجته أم جندب عما يكره النساء منه، فقالت: يكرهن منك أنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، وسأل أخرى نفس السؤال فقالت: يكرهن منك أنك إذا عرقت فحت بريح كلب، فقال: أنت صدقتني، إن أهلي أرضعونني بلبن كلبة.

هكذا قدر للأمير الشريف، والشاعر المرفف الحس أن يواجه واقعاً مرأياً يعز على مثله أن يتحمله، فما حاجة النساء لشاعر فصيح، رقيق العبارة، جزل اللفظ، دقيق التصوير، إذا كان في الفراش ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، أو إذا كان يعرق فيفوح بريح كلب.

وهكذا أصبح الأمير يشعر بانحطاط نفسه أمام المرأة التي يشتهيها ولا يجد سبيلاً للوصول إلى إعجابها، ويستمتع بها لا يستطيع أن يتمتع بها، فسرعان ما لجأ إلى الشعر الذي يستطيع من خلاله أن ينسج الحكايات والمغامرات التي يكون فيها الرجل الذي لا يستطيع أن يكونه في الواقع، فهو في شعره رجلٌ فحل، تشتهي النسوة، ويرحبن بمقدمه في أي وقت، غير مباليات بالأهل ووجودهم في سامرهم، وربما كان فيهم أزواجهن.

يقول في إحدى قصائده:

سموت إليها بعدما نسام أهلها	سمو حباب الماء حالاً على حال ^(١)
فقلت: سبناك الله إنك فاضحي	ألست ترى السمار والناس أحوالي

(١) حباب الماء: قطراته

فقلت بين الله أبرح قاعداً	ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
حلفت لها بالله حلقة فاجر	لتاموا فما إن من حديث ولاصال ^(١)
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت	هصرت بغصن ذي شماريخ ميال ^(٢)
وصرنا إلى الحسنى ورق كلا منا	ورضت لدلت صعبة أى إذلال
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعليها	عليه القتام، سىء الظسن والبال ^(٣)
يغط غطيط البكر شد خناقه	ليقتلنى والمرء ليس بقتال ^(٤)
أيقتلنى والمشرفى مضاجعى	ومسنونة زرق كأياب أغوال ^(٥)
وليس بذى رمح فيطمئنى به	وليس بذى سيف وليس بنبال
أيقتلنى وقد شغفت فؤادها	كما شغف المهنوءة الرجل الطالى ^(٦)
وقد علمت سلمى وإن كان بعليها	بأن الفتى يهذى وليس بفعال

من خلال هذه الأبيات حاول امرؤ القيس أن يصور نفسه عاشقاً استبد به الشوق حتى هانت أمامه كل المخاطر التى تعترض سبيله إلى محبوبته، حتى سما إليها فى خفة ورشاقة كقطرات الماء التى يعلو بعضها بعضاً فى هدوء ويسر، ثم لما وصل إليها ووجدها مضطربة من أثر المفاجأة اخذ يقسم لها أنه لن يذهب حتى لو قتلوه ومثلوا به، فلا فائدة إذن من الاضطرابات أمام عاشق مٌصرٍ على قضاء لحظات الوصل العذبة، ولأمانع من أن يحلف لها

(١) صال: مصطل بالنار، يستدفئ

(٢) هصرت: جذبت، الغصن أراد به جسمها، ذي شماريخ: يقصد شعرها

(٣) القتام: الفبار (٤) يغط: يردد صوتاً كصوت المختق، البكر: الجمل الصعب ترويضه

(٥) المشرفى: السيف، الأغوال: جمع غول (٦) المهنوءة: المطلية بالقطران

كاذباً أن الناس قد ناموا ولم يعد هناك من يتحدث أو يجلس أمام النار طالباً دفء لهيبها، فلما اطمأنت بدأت تبادلته الحديث الحلو الهادئ، وقد انقادت له بعد صعوبة، وسهلت بعد تمنع، فانتزع هواها، وخلب فؤادها، فأحبته وكرهت زوجها الذي عاد مغبراً كاسف البال، فلما عرف ما كان من أمرهما، اختنق غيظاً كجمل فتى شد من خناقه بحبل، يريد قتله ولكن ليس في وسعه أن يقتل من لا يفارق سيفه، مسنون السهام، محدد الأزجة، صافية كأنها أنياب غيلان، وهو لا يملك رمحاً يطعن ولا سيفاً يشهر، ولا نبلاً ترمى، وحتى لو قتله فأزاحه من طريقه لن يسعد معها، فقد ملك شاعرها شغاف قلبها، كما تستلذ الناقة المطلية بالقطران، وقد علمت سلمى أن زوجها ثرثار قوال يتحدث كثيراً ولا يعمل شيئاً.

وفي معلقته التي بلغت ثمانية وسبعين بيتاً كان من الطبيعي أن نرى المرأة تتسلل إلى أبياتها من خلال الوصف تارة ومن خلال دورها كبطلة في مغامرة عاطفية تارة أخرى، يقول:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها	تمتعت من لهو بها غير معجل ^(١)
تخطيت أهوالاً إليها وممشراً	على حراساً لو يسرون مقتلى
إذا ما الثريا في السماء تعرضت	تعرض أثناء الوشاح المفصل ^(٢)
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها	لدى الستر إلا لبسة المتفضل ^(٣)
فقلت: يمين الله مالك حيلة	وما إن أرى عنك العماية تنجلي ^(٤)

(١) بيضة: أراد بها المرأة لصفائها ورقتها

(٢) الوشاح: خرز ملون، المفصل: الذي فصل بالزبرجد

(٣) نضت: نزعت، المتفضل: الذي يلبس ثوباً أحداً

(٤) العماية: الاستهتار

- خرجت بها تمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل^(١)
 فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن حقف ذى ركان عقنقل^(٢)
 إذا التفتت نحوى تضضوع ريحها نسيم الصبا جاءت برريا القرنفل^(٣)
 هصرت بفودى رأسها فتمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل^(٤)

فى هذه المغامرة (يرسم فى صورة متكاملة كيف اقتحم الأهوال إليها، وتخطى القوم برغم يقظة هؤلاء، ومنعة بيتها، وتربص أهلها به، وإصرارهم على قتله لو استطاعوا أن يفعلوه خفية، وماهم بقادرين لحسبه ونباهته، وقد بلغ بيتها والثريا تتوسط السماء، تلمع فيها بين النجوم لمعان لؤلؤة تتوسط خرزاً فى ثوب موشى. وكانت صاحبتة تأخذ أهبتها لتنام، خلعت ثياب اليوم وارتردت ثوب النوم، فلما فاجأها جرى بينهما حديث وحوار، أقسمت له أنها استنفدت جهدها فى دفعه، فلم يبق لها حيلة، وأنه مفرق فى استهتاره، فلا سبيل له أن يتعقل، ومابقى أمامها إلا أن تطيعه، فخرجت معه إلى مكان قصى من الحى حيث لا تراهما العيون، وقد ارتدت ثوباً طويلاً تجر وراءهما ذيله، فيمحو كل أثر تخلفه أقدامهما، وقد تطيبت بمسك ينتشر منها قوياً، كما لو كان نسيماً رقيقاً مر بديار عامرة بزهور القرنفل فإذا داعبها مالت عليه دقيقة الخصر ريانة الساق)^(٥).

وحتى تكتمل مظاهر الفحولة لم يكن هناك بدٌ من تصوير مغامرة يكون فيها امرؤ القيس مرغوباً فيه، مسعياً إليه، تترك لأجله عظام الأمور، وحبذا لو كانت معشوقته هذه أو عاشقته

(١) المرط: ثوب من الحرير أو الصوف يؤتزر بها، مرحل: موشى
 (٢) الحقف: من الرمل أى المعوج، ركام: أى بعضه فوق بعض، عقنقل: منعقد متداخل
 (٣) تضضوع: انتشر وتحرك، ريا: رائحة (٤) هصر: جذب، فودا الرأس: جانباه، الهضيم: الضامر، ريا: ممتلئة
 (٥) امرؤ القيس حياته وشعره للدكتور الطاهر أحمد مكى ط. دار المعارف ص ١٨٩

كما أراد تصويرها أمّا لرضيع، ليتوزع قلبها بين رضيعها وحبيبها، فتقوم المفاضلة بينهما، ويقوم الصراع بين عاطفة الأمومة وعاطفة المرأة المحبة، فهي تخشى إذا تخلفت عن حبيبها أن يسىء بها الظن ويسؤوها إذا جاءته أن تدع وليدها يبكى، وحتى يأخذ العدل مجراه قبل الحكم فى ذلك الصراع كان لابد من تمثيل حضوره عندها برسول منه إليها يدعم موقفه عندها، حتى يكو الاختيار بين حاضرين، لابين حاضرين وغائب.

ثم لما انحسم الصراع لصالح الحبيب، جاءته تمشى بحذر يشوبه القلق وكأنها تقطف الخطأ من الأرض كأنها السكران يخشى أن يدركه الناس فى الطريق، فلما وصلت إليه لم يجد فى صبره مساحة لحديثها ف راحت تكلمه وهو يجرد لها من ثيابها، وتقول له: لو أن شيئاً آخر طرأ فى هذه الساعة من الليل لما أعرته أى اهتمام، أما أنت فلا أستطيع لك دعماً وقضياً الليل قتيلين لا يعرف لهما الناس مصرعا، تسعده وتدفع عنه الهم، ويمتعها وينأى بها عن الملل، ثم انقطع بينهما عادى الحديث وحل مكانه آخر أخفت صوتاً، وأعذب مضى، ولفتها الستائر، فإذا أخذتها هزة النشوة، أمسكت بذراعيه تدنيه منها، فإذا بهما ذراعان قويان لرجل مقدم على الأهوال. يقول امرؤ القيس:

تراقب منظوم التماثم مرضعاً^(١)

ومنهن سوفى الخود بللهما الندى

بكاه فتثنى الجيد أن يتضوعاً^(٢)

يمز عليها ريتى ويسوؤها

حذاراً عليها أن تقوم فتسمعاً

بمئت إليها والنجوم طوالسع

(١) الخود: المرأة الحبيبة

(٢) يتضوع: يشتد بكاءه

فقامت قطوف المشى هائبة السرى	يدافع ركنها كواعب أربعة ^(١)
يزجنيها مشي النزيف وقد جرى	صباب الكرى فى مخه فتقطعا ^(٢)
تقول وقد جردتها من ثيابها	كما رعت مكحول المدامع أتلعا ^(٣)
أجدك لو شىء أنا رسوله	سواك ولكن لم نجد لك مدفعا
فبتنا نصد الوحش عنا كأننا	قتيلان لم يعرف لنا الناس مصرعا ^(٤)
نجافى عن المائور بيني وبينها	وتدنى عليها السابرى المضلعا ^(٥)
إذا أخذتها هزة الروع أمسكت	بمنكب مقدم على الهول أروعا ^(٦)

هذا بعض من شعر امرئ القيس فى المرأة، وديوانه يضم العديد من النساء بمقدار مغامراته معهن، وبتعدد المغامرات وتعدد طبائع النساء، (نرى فاطمة المتدلة المعزوزة، وليلى الناسية الذاكرة، وعزيزة المتمنعة المستجيبة، وأسماء المتحولة المتقلبة، وسلمى الغرة النافرة، وماوية الخبيثة الماكرة، مهر اللعوب المستجيبة، ورقاش البخيلة الباذلة، ونساء كثيرات لا يذكر أسماءهن، فيهن الساقطة المحتجبة، والسادجة العاقلة، والخائفة المتكبرة، ومن تقصر حبها على رجل، ومن تهب نفسها للناس جميعا)^(٧).

ومنهن من لها قوم يغارون عليها، ومن لا يمثل زوجها ثقلاً فى البادية من الرقيق أو عامة الناس، يأتيها امرؤ القيس ولا يقيم لزوجها وزناً، وهناك المرأة الأم، والشابة الفتية، والصبية

(١) قطوف الخطأ: مشيها متقارب، ركنها: جنبها

(٢) يزجى: يسوق، النزيف: السكران، صباب الكرى: بقية النعاس

(٣) مكحول المدامع: ولد الظبية، أتلغ: طويل العنق

(٤) الوحش: الهم وربما قصد الوحشة

(٥) السابرى: نوع الثياب

(٦) هزة الروع: ارتعاده النشوة

(٧) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

المراهقة، والحرية والجارية، حتى بائعة الهوى ليس من حرج فى أن يلج دارها، فديوانه إذن يصلح أن يكون مرجعاً لدراسة الحالة الاجتماعية للمرأة فى العصر الجاهلى، ذلك فضلاً عن دراسة الغزل وطبيعته فى ذلك العصر فهذه من الدراسات الموجودة بالفعل.

يطرح أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى سؤالاً عن طبيعة شعر امرئ القيس فى المرأة فيقول: (لم شغل امرؤ القيس دون غيره من شعراء عصره بالمرأة فوصفها ذكريات وبدناً، وصورها حرة وبغياً، وحدثنا عنها طالباً ومغامراً؟) (٧).

ثم يقدم لسؤاله جواباً فيقول:

(الجواب يكمن فى نشأته العائلية، كان أبوه متزوجاً بأكثر من امرأة ولسنا نعرف على التأكيد مكانة أمه من قلب أبيه، لكن واقع الحال ينبىء - إذا أخذنا برواية أنها أخت يزيد بن كبشة - وأنه كان زواجاً قبلياً، ثمليه صلة القرابة ودواعيها دون أن ينظر فيه إلى عماد أى زواج ناجح، من توافق فى العواطف والميول، وامرؤ القيس يصمت عن أمه تماماً، لا يعرض لها ولا مرة واحدة، فهل يسوغ لى هذا الصمت أن أفترض أنه افتقدها طفلاً صغيراً، فلم يبق لها فى ذاكرته أدنى نصيب حين قوى عوده واشتد ساعده؟ بلى ذلك ماأراه، من غير أم أمضى امرؤ القيس طفولته وشب يتيماً ضائعاً، أبوه فى شغل عنه بملاذه وملكه، وقاسٍ معه فى تربيته وحسابه، وفى البيت يفتقد العاطفة الودود، فشب وقلبه صحراء مجذبة يغمرها الخوف والوحدة، وشيء يمكن أن يملأ قلب الرجل الخالى، هو قلب المرأة وفى الوقت نفسه

(١) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

هى أمضى سلاح لقتل الخوف، واجتثاث الوحدة، والمرأة القادرة هى المرأة الفاتنة، وفتنتها تتمثل فى كمالها خلقة وتصويراً. وهذا هو السبب فى أن امرأ القيس قصر شعره ومشاعره على الجانب الحسى وحده فى جمال حبيباته.

ويمكن أن أضيف إلى ذلك سبباً آخر، هو أنه لم تكن هناك فرصة له - ولالغيره - لكى يلقى الحبيبة دوماً، فى غير لحظات اللهو العاجلة، ليكتشف الجانب الخفى من فضائلها، لأن المجتمع الجاهلى رغم أنه لا يعرف الحجاب، ولا يمنع الاختلاط، كانت تحكمه تقاليد تجعل من الرجل جليس نده، ومن المرأة سميرة بنت جنسها، فكان ثم فصل بين الجنسين تقليداً متعارفاً، فلا يرى الرجل من جمال المرأة إلا جانبها الخارجى، وهو جمال رغم ماديته يعكس جانباً كبيراً من فضائلها النفسية، لأنه جوهر وتعبير، وتجسيم لروحها قبل أن يكون دماً وأعصاباً ومادة، والحب الحسى، كالعشق العذرى، ينبعث عن عاطفة ويعبر عن شعور^(١).

قبل أن نسجل تحفظنا على هذا الجواب نسجل أولاً تحفظنا على السؤال، ف شعر امرئ القيس فى المرأة لم يخل تماماً من تصوير نفسية المرأة، وإلا فمن أين عرفنا أن فاطمة متدلة معزوزة، وليلى ناسية ناكرة، وعنيزة متمنعة مستجيبة، وأسماء متحولة متقلبة، وسلمى غرة نافرة، وماوية خبيثة ماكرة، لعوب مستجيبة، ورقاش معترضة باذلة، وكل هذه أسماء لنساء ذكرهن الرجل فى شعره وحكى مغامراته معهن التى من خلالها استطعنا أن نقف على الوصف النفسى لهؤلاء النسوة، لكن الواقع هو قلة ذلك الوصف النفسى بالنسبة لجملة شعره.

(١) امرؤ القيس حياته وشعره ص ١٩٤

أما عن سلوكه الماكن والذي أرجعه أستاذنا إلى نشأته العائلية وخاصة فقدته لأمه، فنحن نرى ذلك ظناً لا يرقى إلى الواقع، فلم تثبت المصادر أن امرأ القيس نشأ يتيماً، ولو كان لهذا الأمر أهمية لما أغفله مؤرخو الأدب القدماء، فإما أنه لم ينشأ يتيماً لذلك لم يذكر فى سيرته يتمه، وإما أنه نشأ يتيماً فعلاً وأغفل المؤرخون ذلك لعدم أهميته فى التأثير على سلوكه وشعره، فالعرب فى هذه الفترة من الزمن كانوا يرسلون أطفالهم الرضع إلى البوادي حيث يقضون فترة طفولتهم الأولى، عند المراضع فينشأون على خشونة البادية فيشتد عودهم ويخشوشن طبعهم فى رمال الصحراء الملهبة وتحت شمسها البقطة، كما تتاح لهم فرصة تلقى اللغة العربية من ألسنة أهل البادية وهم أفصح من أهل الحضر فينشأ الطفل طلق اللسان فصيحاً، ثم يعود إلى أهله بعد تلك الفترة التى غالباً ماتكون نهاية اللهو والعبث الصبيانى، فيعهد له أبوه بعمل يسير كرعى الغنم حيث يقضى نهاره فى عمله ويقضى بعض ليله مع رفاقه ممن هم فى مثل سنه وغالباً يعملون نفس عمله، أو مع أبيه فى مجالس الرجال، وبذلك تكون علاقته بأمه علاقة محدودة، فلا يرثى لصبى ماتت أمه أو فارقت أباه مطلقة عائدة إلى مضارب قبيلها، كما أن العرب تعرف اليتيم بموت أبيه قبل أن يبلغ الحلم، لا بموت أمه، أما عدم ذكر امرئ القيس لأمه فى شعره فلا يسوغ افتراض أنه افتقدها صغيراً، وإلا اعتبرنا الكثرة الكاثرة من شعراء العربية أيتاماً لنفس السبب.

لعل هذا السلوك راجع إلى كراهية النساء له وعدم رغبتهن فيه، فالناس أمام ذلك الأمر ينقسمون قسمين، فمنهم من يجتنب النساء ويعاديهن ويعلل ذلك بعله يرتضيها، ومنهم من يعتبر المسألة شخصية ويرى الخلل فى كل امرأة يقابلها فيظل يبحث عن امرأة بريئة من هذا الخلل، فكان امرؤ القيس باحثاً عن امرأة تحبه، لانقول تسعى إليه ولكن على الأقل تتقبل

سعيه إليها، كان يبحث عن امرأة لاترى صدره ثقيلاً ولاعجزه خفيفاً ولاإراقتة سريعة ولاإفاقتة بطيئة، كان يبحث عن امرأة تعانقه فلا تشم له رائحة كلب، كان يبحث عن امرأة تضمده الجرح الذي نكأته أم جندب بوصفها^(١) الذي أدمى رجولته وهوى بكبريائه إلى الحضيض.

في غمرة اللهو والعبث قدر على الشاعر الرقيق أن يتحمل وحده ودون إخوته عبء الأخذ بثأر أبيه الذي قتله قبيلة أسد، ولقد جاءه خبر مقتل أبيه وهو في قرية يقال لها «دمون» في حضرموت، وكان يجالس نديماً له يشربان الخمر ويلعبان النرد، فلما أعلمه الناعي الخبر لم يلتفت إلى قوله واستمر في اللعب حتى لايفسد على صاحبه المجلس، فلما انتهى من اللعب التفت إلى الناعي وقال: «ضيعنى صغيراً وحملنى دمه كبيراً، لاصحو اليوم ولاسكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر، ثم قال:

خليلي لافى اليوم مصحى لشارب ولافى غدٍ إذ ذاك ماكان يشرب

ثم شرب سبعا فلما صبحا إلى ألا يأكل لحماً ويشرب خمراً، ولايدهن بدهن، ولايصيب امرأة، ولايغسل رأسه من جنابة، حتى يدرك بثأره^(٢).

ولكن كيف يدرك ثأره وثأره عند قبيلة عظيمة لا يستهان بها عدداً وعتاداً، وليس عند فرد يقتله وينتهى الأمر، إلى جانب أن كندة - قبيلة امرىء القيس - كانت تعتمد على أصدقاء في الجنوب تلاشى سلطانهم، كما أن أعداءهم في الحيرة كانوا ضعافاً فأصبحوا أقوياء، كما

(١) انظر أول صفحة من هذا الفصل

(٢) الأغاني ص ٣٢٠٨

أن العصبية الكندية قد اندثرت وتلاشت تقريباً، فكيف يدرك شاعرنا ثأره ولا سبيل إلى حلٍ آخر؟!

ولقد «قدم على امرئ القيس بن حجر بعد مقتل أبيه رجال من قبائل بني أسد كهول وشبان، فيهم المهاجر بن خدّاش بن عم عبید بن الأبرص، وقبيصة بن نعيم، وكان في بني أسد مقيماً وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور ورداً وإصراراً، يعرف ذلك له من كان محيطاً بأكناف بلده من العرب، فلما علم بمكانهم أمر بإنزالهم وتقدم بإكرامهم والإفضال عليهم، واحتجب عنهم ثلاثاً، فسألوا من حضر من رجال كندة فقال: هو في شغل بإخراج ما في خزائن حجر من السلاح والعدة، فقالوا: اللهم غفرأ، إنما قدمنا في أمر نتناسى به ذكر ماسلف ونستدرك به ما فرط، فليبلغ ذلك عنا، فخرج عليهم في قباء وخف وعمامه سوداء، وكانت العرب لاتعتم بالسواء إلا في الترات، فلما نظروا إليه قاموا له، وبدر إليه قبيصة قائلاً: إنك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدّثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ولا تذكرة مجرب، لك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك في العرب محتمل يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة، ورجوع عن الهفوة، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي وبصيرة الفهم وكرم الصفح في الذي كان من الخطب الجليل لأذى عمت رؤيته نزاراً واليمن، ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع، كان لحجر التاج والعمّة فوق الجبين الكريم وإخاء الحمد وطيب الشيم، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرامنا على مثله، ولقد يناله منه، ولكن مضى به سبيل لا يرجع أولاه على أخراه، ولا يلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال: إما أن اخترت من بني أسد أشرفها بيتاً، وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات

حسامك.. أو فداء بما يروح من بنى أسد من نعمها فهي ألوف تجاوز الحسبة فكان ذلك فداءً رجعت به القضب إلى أجفانها لم يردده تسليط الإحن على البرءاء، وإما أن توادعنا حتى تضع الجوامل فنسدل الأزر ونعقد الخمر فوق الرايات، فبكى امرؤ القيس ساعة ثم رفع رأسه فقال: لقد علمت العرب أن لا كفء لحجر في دم، وإنى لن أعتاض به جملاً ولاناقة فأكتسب بذلك سبة الأبد وفث العضد، وأما النظرة فقد أوجبتهما الأجنة في بطون أمهاتها، ولن أكون سبباً لعطبها وستعرفو طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقاً^(١).

وانصرف بنو أسد مثقلة عواتقهم بهذا الجواب، وانطلق امرؤ القيس في الجزيرة باحثاً عن نصير يعينه على الأخذ بثأره واسترداد ملك أبيه الضائع وقد لجأ أول ما لجأ إلى قبيلتين من أقوى القبائل العربية هما بكر وتغلب وقد عاونوه وأمدوه بالجند والسلاح، فانطلق طالباً بنى أسد الذين رحلوا حين علموا بمقدمه فأصاب قوماً من بنى كنانة وهو يظن أنهم بنو أسد ووضع السيف فيهم وهو يصيح: يالثرارات الملك، يالثرارات الهمام، فخرجت إليه عجوز من بنى كنانة، فقالت: أبيت اللعن، لسنا لك بثأراً، نحن من كنانة، فدونك ثأرك فاطلبهم، فإن القوم قد ساروا بالأمس، ثم تبع بنى أسد فأدركهم وقتلهم حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم، ثم حال الليل بينهم، وهربت بنو أسد، فلما جاء الصباح أراد امرؤ القيس أن يعيد الكرة عليهم لكن بكرأ وتغلب أبوا أن يتبعوهم وقالوا له: قد أصبت ثأرك، قال: ما فعلت ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم من بنى أسد أجداً، قالوا: بلى، ولكنك رجل شثوم،

(١) الأغاني ص ٣٢٢٣

وانصرفوا عنه وتركوه.

ثم خرج امرؤ القيس من فوره إلى اليمن فاستنصر قبيلة تسمى «أزد شنوءة» فأبوا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيراننا، فنزل بقريب له يدعى مرثد الخير بن ذى جدان الحميرى فاستنصره واستمده على بنى أسد، فأمدته بخمسمائة رجل من حمير، ومات مرثد قبل رحيل امرئ القيس بهم، وخلفه رجل يقال له قرمل بن الحميم، فأخذ يسوف امرأ القيس ويطول عليه حتى همَّ بالانصراف عنه وقال فيه:

وإذ نحن ندعو مرثد الخير ربنا وإذ نحن لاندعى عبيداً لقرمل

فلما سمع ذلك منه أنقذ له الجيش، واستأجر من قبائل العرب رجالاً ثم سار بهم إلى بنى أسد، ومر بموضع فى جنوب مكة يسمى «تبالة» وبه صنم للعرب تعظمه، يسمونه «ذو الخلصة» واستسقم عنده بقداح ثلاث هى الأمر والناهى والمتربص، فأجالها فخرج الناهى، ثم أجالها فخرج الناهى ثم أجالها ثالثة فخرج الناهى للمرة للأخيرة، فاغتاظ امرؤ القيس، وجمع القداح وضرب بها وجه الصنم وقال له: «لو كان أبوك الذى قتل ماعقتى»^(١).

ثم خرج فظفر بينى أسد، فلم يستقسم عند ذى الخلصة بعدها حتى جاء الإسلام فهدم هذا الصنم.

ولعداوة قديمة بين المنذر ملك الحيرة وبين كندة خشى المنذر أن ينجح امرؤ القيس فى أن يعيد لكندة سطوتها، فوجه إليه الجيوش، وأمدته كسرى أنوشروان بجيش من الأساورة

(١) الأغاني ج ٩ ص ٣٢١٣

فسرحهم فى طلبه، وتفرقت عن امرىء القيس حمير ومن كان معه فلم تعد له بهم طاقة فنجأ فى جماعة من أهله ونزل بالحارث بن شهاب من بنى يربوع بن حنظلة، ومعه الدروع التى كان أجداده يتوارثونها، فأرسل المنذر إلى الحارث يتوعده بالحرب إن لم يسلم له الكنديين اللاتيين به، فأسلمهم إليه، فقتل المنذر منهم إثنى عشر فتى من امرائهم، ولم ينس امرؤ القيس لبنى حنظلة موقفهم منه، فاتخذهم مثلاً للغدر والخذلان والخبث والشر، فكان إذا هجا قوماً شبههم ببنى حنظلة وإذا مدح قوماً ارتفع بهم عن ذلك التشبيه.

لجأ امرؤ القيس من المنذر ومعه ابنته هند وأدرعه وسلاحه، ونزل على رجل يسمى سعد بن الضباب الإيادى سيد قبيلة إياد فأجاره، لكن المنذر ظل يطلبه فتحول عن سعد الإيادى إلى رجل يسمى المعلى بن تيم من جديلة طيء، وعنده فكر امرؤ القيس أن يستقر زمناً، لكن بقية قوم المعلى ضاقوا به، وطردهوا رواحله فخرج من عندهم قاصداً رجلاً يسمى خالد بن أصمع النبهانى، فأغار بنو جديلة عليه وذهبوا بإبله، ففارق امرؤ القيس بنى نبهان ونزل عند رجل خليع فأتك يسمى عامر بن جوين الذى طمع فى أموال امرىء القيس وابنته هند، وقال فيها شعراً، فلما عرف امرؤ القيس ذلك منه، خافه على أهله وماله فتغفله وانتقل إلى رجل يسمى جارية بن مر بن حنبل، من بنى ثعل، فاستجار به، ووقعت الحرب بين عامر بن جوين وبين جارية من أجله، فدافع بنو ثعل عنه وقدر لهم امرؤ القيس موقفهم وشكرهم فى قصيدة هجا فيها خالداً النبهانى الذى توانى عن استرداد رواحله التى أغار عليها بنو جديلة وهو فى جواره.

فلما وقعت الحرب بين طيء من أجله خرج من عندهم ونزل عند رجل من بنى فزارة يسمى عمراً بن جابر بن مازن، وعنده فكر فى الذهاب إلى قيصر ليستنصره على بنى أسد،

ولما وصل إلى قيصر قبله وأكرمه وأنزله منزلة حسنة، فاندس رجل من بنى أسد يسمى «الطماح» وكان امرؤ القيس قد قتل أخاه، فقال لقيصر: «إن امرأ القيس غوى عاهر وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرأسل ابتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك، فبعث إليه حينئذ بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب، وقال له: إني أرسلت إليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك، فإذا وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة، واكتب إلى خبرك من منزل إلى منزل، فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سمي ذا القروح، وقال فى ذلك:

لقد طمح الطمح من بعد أرضه . ليلبسنى مما يلبس أبؤسا

فلو أنها نفسى تموت سوية . ولكنها نفس تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها...، ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت فى سطح جبل يقال له العسيب فسأل عنها فأخبر بقصتها فقال:

أجارتنا إن المزار قريب . وإني مقيم ما أقام عسيبُ

أجارتنا إنا غريبان هاهنا . وكل غريب للغريب نسيب

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة»^(١).

لأنستطيع أن نشير إلى قصيدة أو مقطوعة أو بيت ونقول إن هذا هو الذى قتل امرأ

(١) الأغاني ص ٣٢١٩ وما بعدها


القيس، فالرجل كما رأينا قد قتل بسبب وشاية الطماح، وهو لم يقل شعراً في ابنة قيصر، فكيف يحق لنا أن نقول إن امرأ القيس قد قتله شعره؟!!

لاشك أن الطماح كان مصيباً في النفاذ إلى نقطة إثارة حفيظة قيصر على امرئ القيس حينما ذكره بعهره وشعره الماجن فوضعه أمام فضيحة كبيرة لا يمكن أن يتجنب حدوثها إلا بقتل الرجل، ولعل سلوك امرئ القيس الخليع وشعره الصارخ مجونا كانا معروفين لدى قيصر، ولعله كان يتوقع مثل ذلك منه، وإلا لاختار الطماح وشاية أخرى أوقع تأثيراً عند قيصر، لكنه أدرك مكان الجرح فنكأه، لذلك لم يصبر قيصر حتى يتحقق من هذه الوشاية، وهذا دليل على توقعه لحادثة كهذه، لذلك لم يكن عقابه لامرئ القيس عقاباً عادياً وإنما رداً على العار الذي توقع أن يلبسه لقيصر من خلال قصيدة أو عدة قصائد في وصف مغامرة أو عدة مغامرات مع ابنته، رداً على ذلك ألبسه قيصر حلة مسمومة يتساقط من تحتها جلده.

لذلك نستطيع أن نقول دون مغالاة أن امرأ القيس قد قتله شعره، أي شعره؟ كل شعره.

محتويات الكتاب

الإهداء	٥
هدية بن خشرم	٧
كعب الأشقرى	١٥
عبيد بن الأبرص	٢٣
أبو العبر	٣١
السليك بن السلكة	٣٩
الكميت	٤٥
المتنبى	٧١
أبو نخيلة	١٠٧
مزاحم بن عمرو	١١٧
طرفه بن العبد	١٢٧
أعشي همدان	١٣٩
وضاح اليمن	١٤٩
بشار بن برد	١٦٥
حماد عجرد	١٨٧
أمرؤ القيس	٢٠١


المنشورات للطباعة والنشر
٢٨ شارع العطار - عين شمس
ت: ٢٤٣٩٣٣٧ - ٢٩٨٦٩٦٥

هذا الكتاب

الشعر صورة من صور البيان والبلاغ وهو فن محبب إلى النفوس وكان في الماضي يعد الوسيلة الإعلامية الأولى التي تؤثر في الناس. فمن ثم عدت من الأنشطة محل الاهتمام من قبل الحكام الذين كانوا يستثمرون الشعراء في مدحهم وتحسين صورتهم والدفاع عن مواقفهم وسياساتهم.

غير أن هناك من الشعراء من شذ عن الطريق وسلك سبيل المخالفة وقام بمناصرة فرق وتيارات معادية لبعض الخلفاء والسلاطين وأصحاب النفوذ. فكان مصيرهم الموت..

وهذا الكتاب يلقي الضوء على هؤلاء الشعراء الذين سلكوا هذا السبيل. وسقطوا ضحية شعرهم.

الناشر